# الأسطى

---

عمرو فهمي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

# الأسطى

الأسطى
عمرو فهمي
تصميم الغلاف : محمد كامل
رقم الإيداع : ٢٠١٢/٢١٧٢١
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٧٤- ٩

دار اكتب للنشر والتوزيع
OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،
المرج الغربية، القاهرة .
المدير العام : يحيى هاشم
هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨
مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ،
خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة .
هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥
E – mail :daroktob١@yahoo.com
Facebook : دار أكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٢م

الحنين هو ذلك الشعور الذي يتوغل بداخلنا مع كل يوم نخطوه للأمام على خط العمر، فنبدو البداية أبعد مما كنا بالأمس، ويتكفل النسيان بإزالة الشوائب، لتبقى الصورة عن الماضي ناصعة، أو على أقل تقدير ليست بقتامة الواقع المعاش.

يأخذني دوما الحنين إلى الجيزة، حيث كانت نشأتي وأولى خطواتي في هذا العالم. أمضيت هناك عقدين من العمر، يبدو أن لهما الرصيد الأكبر في تكويني، ولا أبلغ للتدليل على ذلك من أحلامي في المنام، التي تتخذ من بيتنا القديم مسرحا لأحداثها، رغم غيابي عن مسقط رأسي لسنوات طوال، جعلتني أشبه بالسائح، حين مررت بمنطقة الميدان بعد تطويرها.

ورغم انتقالي إلى الحي الراقي، حيث أسكن الآن، ظللت أعرِّف نفسي كـ"جيزاوي"، وبالغت في مشاعري القومية باعتزازي بكون الجيزة أولى محافظات الوجه القبلي، رغم كونها جزء من القاهرة الكبرى، وعلى ذلك عهدت نوعا من عدم

الارتياح المسبق إزاء القادمين من الدلتا، لا يلبث أن يتلاشى مع الوقت والمعاملة.

في الجيزة، دوما هناك معنى للذكرى، كأية منطقة شعبية أخرى. هناك رائحة للنسيم، حين تمر في الشوارع مبكرا، قاصدا مدرسة بعراقة السعيدية الثانوية، حيث يُنادى المدرس بـ"بيه" لا "أستاذ"، وهناك شعور بالأمان، في أي وقت تجوب فيه الشوارع المحيطة بالميدان، حتى مع علمك بوقوف المدمنين والسكارى وقاطعي الطريق على هذه الناصية أو تلك.

هناك أيضا احتمال أن تراقب أبناء عمومتك في أي من الشوارع المؤدية إلى بيتك، فهنا عاش الجد، وبنى بيوتا شهدت مولد أحفاده، الذين لم يهنأ برؤيتهم رغم عمره المديد. وهناك أصحاب المحال التجارية والحرفية، الذين تتسابق معهم يوميا أيكم يبادر بالسلام.

اعتدت أن أعمل، بشكل موسمي، بمكتبة "كليوباترا"، الكائنة على ناصية شارعي، في مواجهة مدرسة البنات الثانوية الأشهر بالمنطقة. وهذه المصادفة المكانية كانت عديمة الفائدة، كوني أعمل في فترات توقف الدراسة، ومن ثم لا تتوافد على المكتبة أي من الطالبات، اللاتي يقطرن أنوثة، حسب رؤيتهن.

بدأت العمل في "كليوباترا" -التي ينطقها أهالي المنطقة "كولوبطرة" – منذ أنهيت المرحلة الإعدادية، وسمح لي العمل

هناك أن أقرأ الكثير من الروايات والكتب الأكثر رواجا، فكانت أعمال نجيب محفوظ، وتأملات مصطفى محمود من أول المنتجات المقروءة التي عرفتها، بعد أن مللت روايات الجيب.

تخصصت "كليوباترا" بالدرجة الأولى في بيع الأدوات المكتبية، والكتب الخارجية للطلاب، وبعض الهدايا وكروت المعايدة، وبعض لعب الأطفال، وبالتأكيد الكتب، التي كانت إما روايات كلاسيكية، أو مؤلفات رائجة تجاريا، بما في ذلك عناوين من طراز "١٠٠ سؤال عن الجنس" و"كل شيء عن الجنس"، إلى ذلك.

تقتصر حركة البيع في شهور الصيف على الهدايا، التي صرت أجيد لفها في الورق البلاستيكي اللامع، بجانب بعض الروايات والكتب، التي أتولى أحيانا عملية ترشيحها للزبائن. في حين تشتد عملية بيع الكتب الدراسية، وأحيانا تصوير الأوراق، خلال أول أسبوعين من سبتمبر.

كان صاحب المكتبة يدعى الحاج سيد، ولكنه لم يعد يباشر عمله،فترك الإدارة لولده عادل، الذي كان يكبرني بعشر سنوات. فبينما كنت أبدأ العمل تحت إشرافه، كان قد أنهى دراسته بكلية الحقوق، وتفرغ للعمل للحر، ومبادلة اسطوانات الكومبيوتر، وأحيانا الأقراص الصلبة "الهارد ديسك" مع أصدقائه المتوافدين كل حين وآخر للتحدث معه في أمر، يبدو تافها كالمعتاد.

تركت الجيزة، وعادل لم يزل واقفا كعادته على باب "كليوباترا"، يدخن سيجارة، ويتابع الفتيات، وبدلا من الاسطوانات ها هو يتبادل الفلاشات، ولا يغيب بالداخل إلا لتلبية طلب زبون، أو الدردشة عبر الإنترنت، من خلال حاسبه المحمول – الذي صار في يد الجميع– والحديث عن إمكانية الزواج بعد أن مر العمر سريعا.

ومع دخول الدراسة، أستيقظ مبكرا، وأتوجه –ربما بنفس الملابس التي خلدت بها للنوم– للوقوف بمحاذاة سور حديقة الحيوان مع الأصدقاء، حتى تنتهي الحصة الأولى، ثم يصعد كل إلى فصله، فننام حصة أو اثنتين، ثم نفيق قبل الفسحة،ونرحل بعدها بحصة أو اثنتين من الباب الرئيسي، دون حاجة لتسلق السور أو افتعال أية حيلة.

كانت الثانوية بالنسبة لي مرحلة انتقالية، تركت فيها المفهوم التقليدي للدراسة، فلا زي موحد، ولا حقيبة ظهر، ولا حاجة لحمل أكثر من كتاب –كتاب الإنجليزية على الأرجح– وكراس لكل المواد وقلم "فرنساوي".

عرفت خلال تلك المرحلة التدخين، وإن كان على سبيل التجربة، ليس أكثر.وعرفت أيضا اشتهاء الشاي، سواء بين الحصص أو على المقهى، واكتسبت ثقة كبيرة في الحياة، لم تكن مترجمة إلى آمال أو أحلام محددة الأبعاد، فقط كان هناك شعور مجهول المصدر بالاطمئنان للمستقبل.

انتهت الدراسة الثانوية، وجاء موعد الجامعة، التي باعدت بيني وبين رفاق الدرب، مكانيا فقط. بقيت كما أنا، بشارع الجامعة بالجيزة، ولكن تقدمت خطوات أبعد صوب جامعة القاهرة، وعبرت الحرم الكبير صوب مبنى كلية الإعلام، حيث بقيت هناك أربع سنوات من عمري، أتمنى كل حين لو تكرر يوم واحد منها.

لم أكن أحلم بالصحافة في طفولتي. والحق، أنني مررت بتقلبات كبيرة حول مهنة المستقبل. ففي البدء، كان شغفي بالحيوانات دافعا لإجابتي بكلمة "طبيب بيطري"، عند إجابتي على سؤال "ماذا تحب أن تكون عندما تكبر؟" الذي يسأله القاصي والداني. ساعدني على ذلك اهتمام أبي بتربية طيور الزينة، وعطف أمي على القطط. ولكن حين أدركت حاجتي لدراسة العلوم بتعمق، وخاصة الفيزياء، صرفت النظر تماما عن تلك الفكرة.. بعدها فكرت في العمل الدبلوماسي، ولكن خصومتي مع الملابس الكلاسيكية وعشقي للجينز أبعداني عن ذلك.

فكرت ذات مساء في المحاماة، ورأيتني خطيبا مفوها، يلقي مرافعة يصفق لها القضاة ذاتهم.. ولكن واقع عادل سيد أمامي في "كليوباترا" كان أكبر سبب لتحولي عن تلك القبلة. وفي تلك الأثناء، كانت المرحلة الثانوية تقترب، ولا أعرف ماذا أريد تحديدا.

ربما أثنى عليّ مدرس اللغة العربية، لإحساني كتابة موضوعات التعبير، ولذلك فكرت في الصحافة، وهو ما كان دون تخطيط كبير.

في سلسلة من الليالي الصيفية، قبل الالتحاق بالجامعة، قررت وصديق العمر محمد فاروق تجوال مساجد الجيزة لأداء صلاة الفجر، فيما يشبه عملية استكشاف وسياحة داخلية. خرجنا حول الميدان كثيرا قبل الأذان، وكنا نسير دون أن يحمل أي منا مستند إثبات شخصية.

كان جميلا شعور أن تمر بالشوارع الخاوية، ولا يقطع السكون سوى آلات تنبيه السيارات المارقة بعيدا من حين إلى آخر. أما إن كانت جولتك بالشوارع الداخلية، فيبقى الأمر الأطرف مقابلة قطعان الكلاب، التي تسير إلى وجهات غير محددة، ولمهام غير معلومة، دون أن يكلف الواحد منها نفسه عناء النباح تجاهك، مكتفيا بالنظر إليك بطرف عينه.

جولة المساجد الفجرية تلك تزامنت مع تزايد النزعة الإسلامية لدى جيلنا بوجه عام. فالغالبية تصلي، بمن في ذلك من أصابهم هوس الأفلام الإباحية. والنقاش، في كثير من الأحيان، يكون عن قضايا مثل المقاطعة والنوادر والفكاهات الصادرة عن بعض الدعاة المخضرمين، خلال خطبهم المسجلة، التي تناقلناها كما تداولنا اسطوانات الألعاب تماما.. أما السير والنيل يبقى حدثا متكررا جميلا في الخلفية.

وبقيت مظلة الازدواجية تستوعب العدد الأكبر منا، ففي جلسة واحدة نتحدث عن الانتفاضة أو نوايا إدارة جورج بوش الابن، ثم ينتقل الكلام سريعا إلى كرة القدم والرحلة القادمة إلى مدرجات ستاد القاهرة، ثم ينعطف بشدة نحو الجنس والعادة، التي سُميت بالسرية، في حين لم تكن كذلك على الإطلاق.

وجاءت الجامعة، ولم نفترق في جولاتنا الليلية والزيارات العشوائية المتبادلة، رغم ذهاب كل منا إلى كلية غير الآخر. جاء حظي -كما قلت- في مبنى الإعلام، الكائن بآخر الحرم. في حين كان محمد فاروق يسلك طريقا أقصر، صوب قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، خلف سور المدخل الرئيسي مباشرة.

مرت تلك الأيام بعيدا، لكنها تبدو وكأنها من عناصر تكويني، شأنها شأن الأكسجين والكربون وغيرها من المواد الأولية.

***

متى عرفت الحب؟ لا أدري تحديدا. هناك الشعور الأولّي الذي يسمى انجذابا، ويقولون عنه بالإنجليزية "**crush**"، وإن جاز لي أن أدرج الحالات التي انطبق عليها هذا الوصف تحت خانة الحب، لامتلأت عن آخرها.

يبدو التصنيف مهمة عسيرة للغاية،حين نحاول فرز كافة المشاعر العاطفية، التي خرجت منا في السابق..هي كبصمات الأصابع، لا تطابق إحداها الأخرى.

ربما يقع الشاب في غرام فتاة تجاوره بالصدفة في مقعد بالحافلة أو القطار.. هو لقاء صامت، يدوم ساعة أو اثنتين على أقصى تقدير، ولكنه يلامس الروح في مواضع ما، ويمضي مع الأيام بعيدا، وكأن شيئا لم يكن غير ذكرى،ربما تستخدم للتندر لاحقا.

ثمة إشكالية كبيرة في العلاقات العاطفية، فهي ليست من فروع علم الطبيعة أو الكيمياء، بل هي أمر ذو طابع اجتماعي، ومن ثم فإنه لا يخضع لأية قاعدة منطقية، ولكنه في نفس الوقت يبدو متأثرا بالقانون الفيزيائي الخالد الجازم بتجاذب الأضداد.

انطبقت عليّ هذه الإشكالية حين أحببت إيمان. على الورق هي شخصية موازية لي، قلما نلتقي.. يمكن وصفها بالمتحررة، بالمعنى غير السلبي للكلمة، ولكنه يبقى مرفوضا هو الآخر، خاصة من وجهة نظري، المتأثرة بقيم بيئة كالجيزة.

لو أردت أوجه الشبه بيننا، فأول عنصر مشترك هو اللمعان، فكلانا براق، وإن اختلف المعدن؛ ولا أكترث إن بدوت مغرورا لذكري ذلك.

في فترة التماس بين المراهقة والشباب، تبدو المعجزات، أو قل غرائب الأمور، أكثر عرضة للوقوع من أي وقت آخر.. فأن تحب شخصا قبل أن تراه، هو أمر ممكن، فلا يكون لقاء العينين بعدها إلا تأكيدا لنجاح عملية التخاطر غير المرئية.

هذا هو ما حدث.. كان لقاؤنا الأول عبر الإنترنت، من خلال منتدى لطلبة الكلية، ولكل اسم مستعار يكتب به موضوعات وتعليقات. وكغالبية القصص، بدأ التجاذب بالخلاف في الرأي حول قضية ما. ولكن نظرا لانحسار معرفة كل منا بالآخر، آثرنا تجنب الشراسة في الحوار، وقاوم كلانا شهوة إظهار الحجة.

لسبب ما،كنت منجذبا نحوها، حتى دون رؤية صورها أو تخيل هيئتها..حتى وإنها لم تكن تتفق معي في أغلب الآراء ــ ودون أن تكون كلماتها أخاذة أو في محور اهتماماتي. لا أدري لماذا كنت مهتما بها، وبما تكتب.

ذات يوم، كنت عالقا بدار الكتب والوثائق القومية، بينما أعد بحثا عن تاريخ الصحافة المصرية. وبعد عبث امتد لأيام، بين آلات الميكروفيلم، وضعت يدي أخيرا على الصفحات، التي ينبغي تصويرها، لإدراجها ضمن ملحقات البحث.

وبينما كنت أنتظر دوري للتصوير، بدأت زميلة لي بالكلية لم أكن أعرفها حوارا حول المادة، وجرت الأسئلة المعتادة للتعارف، قبل أن أفاجئها:

- هل أنت (...)؟
- لا.. لكنها صاحبتي.. اسمها إيمان.. ألا تعرفها؟
- لا.. أبلغيها سلامي فقط.. سلاما من (...).

مرت الأيام حتى تعارفنا في الواقع، وكانت الضحكات أول ما تبادلناه، فلسبب ما، يبدو من دواعي الضحك أن ترى في الحقيقة الشخص الذي كاتبته على منتدى إلكتروني، ووقع بينكما شد وجذب.. الآن أدرك أن الأجيال السابقة، بعد أن اعتادت سماع المذياع لسنوات، ربما قابلت مشاهدة التلفاز بالضحك، قبل أي شيء آخر.

كانت ملامح إيمان خليطا بين الهدوء والحدة. فوجهها رائق، ولكنه بدا لي محدد الأركان، كأنه نُحِتَ نحتا. كذلك كان صوتها.. حادا سريعا حاسما، لا يخلو من طفولة إن أحسنت الظن. بدت وكأنها تمتلك الكثير من المسلّمات..وكذلك كنت أنا، دون أن أصرّح بذلك.

يمضي الزمن، ومعرفتنا تتوطد شيئا فشيئا. هي كل الخطوات المتوقعة بين شاب وفتاة اختارا الصحافة، ولا شك أن الشهرة والنجاح يرتسمان في خيالهما صوب المستقبل، وفي نفس الوقت يسيران بطريق الحب.

تبادلنا الكتب..بالتأكيد أعني الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة. أما اهتماماتها الفلسفية، فلم تلق صدى لديّ، في حين أن اهتمامي بالسياسة أو التاريخ لم ينعكس في صورة كتب مهداة إليها.

كانت أول فتاة أسجل رقمها الشخصي على هاتفي، وهذا يعطيك انطباعا عن سلوكي في تلك المرحلة، فكنت حذرا في

التعامل مع الجنس الآخر، ثم بدأ الجدار الجليدي بيني وبين بنات حواء يذوب مع السنة الثالثة.

منذ أن صارحت إيمان بمشاعري، وبدأنا في لعبة قط وفأر معلنة، انتهت بإعلان قبولها، الذي قالت إنه كان كامنا في السابق، وعللت ذلك برغبتها في اختبار صدق مشاعري.

كثير من الذكريات الجميلة، لا أرغب في المتاجرة بها عبر الورق والأحبار، ولكنها أنجبت أشد لحظاتي جنونا وجرأة وعزيمة.. أتذكر الآن -بكل عجب- تلك الهمة والجاهزية لفعل أي شيء، طالما كان ذلك سيعني ابتسامة ترتسم على شفتيها.

سبب الحب دوما مجهول، وإلا لا يكون حبًا.. ربما أكثر الأسئلة منطقيا في الحب هو في ذات الوقت أبعدها عن منطقه.. أعني سؤال "لماذا أحببتني؟".

من مشكلات الحب الأول أنه يترك صاحبه خزينة خاوية، قد استُنفدت كل محتوياتها. وبالتالي، فعند تكرار التجربة أو محاولة ذلك، فإن العرض يكون شديد الهزالة، مقارنة بالسابق، حتى وإن كانت المشاعر صادقة.

كنا نتشارك الطموح المهني بشكل شديد التشابه، فأكمل دراستي للفرنسية، وتكمل دراستها للألمانية. كنا نفترق عند المترو.. أقول لها إن النيل سيفصل بيننا مرتين.. فأنا أتعلم اللغة في

القاهرة وهي في الجيزة، ثم نتبادل ضفتيّ النهر عبر قطاريّ مترو، يأخذان كلا منا إلى حيث يسكن.

تشاركنا أحلاما، وردية كعمرنا، أن نخيّم يوما في أي من نقاط آسيا الوسطى المهجورة، أن نقوم بمغامرة في صحراء أزواد، أو أن نطوف أوروبا من لندن إلى روما، مرورا بباريس وفيينا وبرشلونة.

كانت تخطط كثيرا لتلك الرحلات، وترسم سيناريوهات لمشاهد لنا في تلك الأماكن القصيّة، دون أن أشعر بالاطمئنان.. كان هناك دوما شبح رحيلها يحوم، كلما نشب بيننا شجار، أو انحرف الحوار إلى مشادة معتادة، تؤدي إلى إنهاء المكالمة.

كانت تلوّح كثيرا بالرحيل، وهو الهاجس الذي كان يفترسني حين أنفرد بنفسي، فأعكف على التخطيط لاجتذابها مجددا، ولتمهيد الطريق نحو الارتباط الرسمي.

لم يكن تخطيطا محضا.. بل كان له انعكاس في صورة خطوات واقعية تكسبه مصداقية،وتستمد قوتها من ذلك التفاؤل المستقبلي، الذي لم يكن قد فارقني بعد.

من الطبيعي ان تطفو الأضداد من حين إلى آخر، لتغلق الطريق تدريجيا في وجه الاستمرار. فبعد عدة أشهر، أخبرتني بقرارها بالانفصال، لأننا -كما قالت- لا نلتقي أبدا.

مر عام أو أكثر وعدنا في محاولة جديدة لم تستمر سوى شهرين اثنين وضعتني في نهايتهما أمام الاختيار بين تقبلها كما هي وبشروطها أو اختيار سبيل آخر.

للوهلة الأولى قلت "أقبل بكِ كما أنت".. ولكنها أصرت ألا أعلن اختياري إلا بعد أيام من التفكير، فكان ما خلصت إليه هو الرفض.

أذكر جيدا تلك المكالمة الأخيرة.. شعرت وكأنني على شاشة السينما الكلاسيكية وأنا اقول:

- سأحزن جدا لو عرفتُ يوما أن هناك من قبِل الارتباط بكِ بنفس الشروط.. تستحقين رجلا وليس مجرد ذكر.

يقولون إن الزيجات من نفس الوسط المهني قد تخلق كثيرا من التفاهم، ولكنها قد تشعل الغيرة أيضا، إزاء متابعة كل طرف لنجاحات الآخر.

ولكن نار الغيرة العاطفية أشد حرا من نظيرتها المهنية، وإن كان كلاهما يقترنان أحيانا.. فمثلا حين تقول لي شريكتي إنها تحلم بالحصول على منحة دراسية في أوروبا، فإن ما سيستفزني ليس طموحها العلمي أو المهني، بقدر ما هو قرارها بالابتعاد وحيدة مغتربة.

هنا يبدو شبح باولو كويليو حاضرا بقوة، وهو يسخر من الهوس أو حب التملك،الذي يصيب أحد طرفي العلاقة العاطفية، ولكن الحقيقة ليست هكذا دائما.. فالعمر كل العمر يبدو شحيحا لاستيعاب الحب والشعور بدفء الجوار،وقد أبخل بالتفريط في يوم أو ساعة.. لا أقول شهورا أو أعواما. وربما من هنا تختلف النظرة من شخص إلى آخر.

أحيانا أقول إن وضع الرجل نفسه في مقارنة مع طموح المرأة المهني أو العلمي يندرج تحت بند الغلط، ولكن في بعض الأحيان تجد نفسك مضطرا لترتيب الأولويات، وإليك مثال على ذلك.

لنفترض أنك حددت موعدا للتقدم لخطبة حبيبة العمر، في ظل سحابة من التشكيك في نواياك وجديتك من جانب ذويها، وتصادف أن لاحت لك فرصة في التدريب المهني، أو الدراسة مؤقتا بمؤسسة كبيرة في أوروبا في نفس الفترة.. أنت هنا مطالب بقرار.. إما أن تزيد الشكوك، وربما تجازف بالفرصة كلها إن أجلّت الخطبة، فضلا عن احتياجك للتسلح بالصبر بعد طول انتظار.. وإما أن تهدر هذه الفرصة الذهبية، التي قد تتطور إلى عمل دائم، أو على الأقل ستكون خبرة ترصع بها سيرتك الذاتية.

من هنا اختلفت الاختيارات، وبعُدت التفاهمات، ورغم أن كلا منا كان يدرك هذا الشقاق، فإننا مضينا قُدُمًا في الحب،

الذي كان يوشك أن ينتهي بالطلاق، لو عرف قطاره محطة الزواج مبكرا، أو ربما في أي وقت كان.

***

دخلت إلى غرفة التحقيقات بالدور الأرضي بمقر الجريدة الأسبوعية، إذ كان في انتظاري شباب المتدربين، لأسمع منهم أفكارا لموضوعات مقترحة.

قبل سنوات كنت في موقعهم، وأذكر في واحدة من الصحف الشهيرة أنني كنت كلما اقترحت فكرة، فاجأني مسئول الصفحة بعبارة من طراز "نشرت في المصور سنة ١٩٨٧"، لأؤكد له أن عمري وقتها كان عامين اثنين فقط.

حاولت بالتالي مع هذا الجيل، الذي يأتي بعدي، ألا أبث نفس القدر من الإحباط. ولكن المشكلة أنني لست مقتنعا بهذه الجريدة، ولا بجدوى ما يُنشر فيها، فضلا عن عدم اقتناعي أصلا بصناعة الصحف الورقية، التي تبدو كل مرة أقرب إلى الزوال، ولكنه أكل العيش.

هي لم تكن مصدر كسب رزقي الوحيد، بل "سبوبة" كغيرها، كنت أفكر في أنها سرعان ما ستتوقف، مثل ما سبقها، ففي مصر عدد قليل للغاية من الصحفيين، الذين يعملون لوسيلة إعلامية واحدة. هناك الوسيلة الأساسية، وهناك السبابيب بتنويعاتها ما

بين إعداد برامج للفضائيات، أو العمل كدسك لصحيفة أو موقع، أو الإشراف على صفحة ما في أية جريدة.

بدأت الاستماع إلى الأفكار المطروحة.. أخذ زمام المبادرة شاب جريء، أتوقع أن أرى كتبه على الأرصفة، إن امتد بي العمر سنوات أخرى.

بالتأكيد ستكون كتبا تجارية من الطراز الأول، كتلك التي تتحدث عن أسرار المشاهير أو اللحظات الأخيرة في حياة الرئيس فلان، أو الوثائق السرية للتيار الديني* العلاني، وهكذا.

كالعادة لم يخيب ظني، واقترح قائلا:

– موضوع عن ممثلي الأفلام الإباحية من ذوي الأصول العربية أو البلاد ذات الغالبية المسلمة.

– لعلك تقصد (.....) و(......)؟

– ما شاء الله! ولكن لا أقصد هاتين فقط.. هناك من العرب وغير العرب أيضا.. ومن يدري بالبحث إلى أين سأصل.

– هذا موضوع شديد الإثارة.. صحفي بامتياز.. ولكن نشره يحتاج إلى عملية جراحية.

---

* ليس المقصود بالتيارات الدينية التيارات الإسلامية المعروفة ذات البرامج السياسية، بل الطوائف النادرة أو الغامضة في بعض المجتمعات والتي قد تنتسب للإسلام أو أي عقيدة أخرى سواء كانت سماوية أم لا.

- سأبدأ بالتنفيذ وأعرضه عليك.

- اتفقنا.. دون وعود مني!

مضيت أستمع إلى بقية الأفكار، التي بدت غير محددة لدى أصحابها. اخترت منها اثنتين، وانصرفت من المقر، بعد تحية عابرة للزملاء.

هكذا لم أستغرق أكثر من ساعة للتخطيط للعدد القادم، ولعل هذا ما يروق لي في الصحف الأسبوعية، فهناك دوما حيز الوقت والتأمل، الذي بات معدوما في بقية الوسائل.

بينما كنت أسير صوب محطة المترو، تذكرت نسياني للهاتف المحمول على طاولة الاجتماعات، فعدت سريعا صوب مقر الجريدة.

وبينما كنت أرتقي الدرج في مدخل البناية، سمعت اسمي بصوت أنثوي قادم من الماضي.. نعم كانت هي!

تعثرت وأنا أستدير، حتى كدت أسقط بشكل مروع، وتوجهت إليها..

- أهلا إيمان..

- أهلا بك!

- وقت طويل...

- .....

– هل ستعملين هنا؟

– لا، كنت أزور زميلتنا مروة في الدور الثاني..

– نعم صحيح.. هي مخرجة الجريدة..

– .....

– جئت فقط لأنني نسيت هاتفي.. هل أستغل الفرصة وأدعوكِ إلى فنجان من القهوة؟

– لتكن فرصة أخرى.. أنا مضطرة حاليا للرحيل.

– .....

– إلى اللقاء!

– سلام.

استعدت هاتفي سريعا، وشربت بعضا من الماء، للتغلب على جفاف حلقي المفاجئ، ثم عدت إلى ذلك الطريق، وأنا أتحسس إصبعي البنصر الأيسر، وذلك الطوق الفضي الذي يحيط به.

نزلت إلى النفق، وبينما كنت أجتاز الماكينة، وجدها ثانية على الرصيف.

– صدفة ثانية تحتم الحديث.

– أهلا (مبتسمة).

– قبل أن تثار الشكوك.. لم أكن أتتبعك.. هذا طريقي.

– فعلا؟

– فعلا.

– كيف حال فيروز؟

– ابنتي؟!

– بالتأكيد لا أقصد المغنية.

– بخير.. شكرا لك.. صارت تتكلم الآن.

– ما شاء الله.

قطع دويّ القطار الحديث بيننا، وأعفاني من تخيل أنغام "كيفك أنت" للسيدة فيروز.. وبشكل تلقائي ركبنا في نفس العربة، عرفت منها ما كنت أعرفه بالفعل.. هي الآن تقيم في ألمانيا لدواعٍ عملية، ولا تأتي إلى مصر إلا بشكل موسمي.. يروق لها العمل هناك، حيث تجري دراسات عليا في ذات الوقت.. ولكن الحنين يجذبها دوما إلى الوطن، فيدفعها إلى زيارة كهذه، التي لم يتبق منها إلا أيام معدودة.

شاءت الصدف للمرة الثالثة أن يترل كلانا في محطة جمال عبد الناصر.. خمنت بالتالي أن يكون مقصدنا المشترك هو مبنى النقابة، وبدت لي الصدف أكثر إصرارا على جمعنا، حين علمت أنها جاءت خصيصا لحضور ندوة لمفكر عربي معروف، تريد دعوته لزيارة جامعتها في برلين.

بينما كنا ننتظر مجيء المفكر، رن هاتفها أكثر من مرة، وكانت تجيب مخاطبة الطرف الآخر بصيغة المذكر، وهو ما أثار فضولي نسبيا.. هل ارتبطَت أخيرا أم لا؟

كنت أعرف، من متابعتي لها على الشبكات الاجتماعية من بعيد، أنها خلال السنوات الماضية مرت بتجربتين عاطفيتين، لم يحالفها في أي منهما التوفيق.. ونما إلى علمي أيضا أنها تعرفت في ألمانيا على زميل تركي لها، يبدو أن صداقة متينة تربطهما.. لكن لا أدري إلى أي مدى تحديدا.

أوقفني عن استراق السمع إلى ما تقول صوت ذكوري خشن ينادي "يا أسطى!!!".

هذه هي كنيتي في الوسط: "الأسطى"، وأطلقها عليّ بعض الرفاق، منذ أن اشتهرت بتشبيه المحرر الصحفي بالحرفي، الذي يضع لمسات فنية من حين إلى آخر، ويتعامل مع ما يقع تحت يده دون تكبر، مهما كان بغيضا إلى نفسه.

كان مصدر الصوت أحمد محسن، أو محسن كما يُنادى، رفيق الدراسة والعمل أحيانا.. قمت إليه سريعا واحتضنته.. كنت أعلم أنه سيكون متواجدا بالندوة، دعاني للجلوس إلى جواره، فتحججت بارتباطي بزميلة، في إشارة إلى إيمان.

بدا وكأنه لم يعرفها.. فتشجعت على إخباره بأنها زميلة سابقة بالكلية، لم تقع عينه عليها لأنه كان سلفيا وقتها، فمن الطبيعي

أن تظل دائرة معارفه، التي وسعها بعد التخرج، تعاني من قصور، إذا كنا نحصي المنتميات إلى الجنس الناعم.

دعوته بدوري إلى الجلوس في جواري، رغم علمي باستحالة ذلك، كون الصف الأول، الذي اختارته إيمان لتكون قريبة من الضيف، لا يضم أي مقعد خال.. ومن ثم تركته، على وعد بالخروج في تمشية، بعد انتهاء الندوة.

أنهت إيمان سلسلة مكالماتها، وبدت وكأنها قد ملّت الانتظار، إلا أن معرفتي بها أخبرتني بأنها كانت تنتظر أن أبدأ معها حديثا ما..

– أي البلاد أعجبتك أكثر؟

– ربما الهند.

– سافرتِ كثيرا، ولبلاد غريبة، ومع ذلك يبدو اختيارك تقليديا.

– ربما!

شعرت بصدها، فألقيت حجرا في بحيرتها الراكدة بتساؤل مفاجئ:

– وكيف حال حاقان؟

– حاقان؟

– نعم.. أو هاكان.

- أها.. بخير. هل تعرفه؟

- تقريبا..

مر الحديث رتيبا، حتى انقطع الانتظار بظهور أحد عاملي النقابة على المنصة، وإعلانه أن المفكر العربي الشهير لم يتمكن من الحضور، لكثرة ارتباطاته، مما أدى لإلغاء الندوة.

انطلق بعض السباب من الصفوف الخلفية، وودعت إيمان هذه المرة بإرادتي، وذهبت إلى محسن متشحا بابتسامة عريضة.

تأبطني ونحن نخرج من باب المبنى الكبير، وبينما بدأ الهدوء يعم شارع رمسيس الممتد أمامنا، طالعني بقوله:

- ماذا كان اسمها؟

- من؟

- زميلتك.

- آها.. تقصد إيمان؟

- هي تلك التي كنت تحبها في الدراسة، أليس كذلك؟

- ... بلى! لن أسألك كيف عرفت أيها السلفي السابق، فأنت بئر لا قرار له.

- بدا عليك.. راقبتكما أثناء الانتظار.

هزتني عبارته الأخيرة.. فاستنتاجه المبني على الملاحظة يعني أن جدار القطيعة الذي شيدته لم يكن أبدا بتلك المتانة.

***

استيقظت في اليوم التالي متزعجا بفعل صياح ابنتي الصغيرة، القادم من غرفة المعيشة. نظرت إلى هاتفي، فكانت الساعة تقارب التاسعة صباحا، إذ لا يفصلني عن رنين المنبه سوى دقائق معدودة، زهدت فيها.

دخلت إلى غرفة المعيشة، لأجد فيروز مستمرة بالصياح في فراشها الصغير، بينما أمها قد أنهكها التعب، حتى غاصت في نوم عميق على الأريكة، دون أن تعبأ بالضجيج المثار حولها.

حملت ابنتي ووضعتها في عربتها، واصطحبتها معي في تنقلاتي بين الغرف، حتى حان موعد النزول إلى العمل، فأعدتها إلى أمها، التي انتبهت من غفوتها، قائلة:

– انتظر.. سأجهز لك الإفطار..

– لا يهمك.. سآكل في العمل.. لا أرغب في التأخر.

أصل إلى مكتبي، في الجريدة اليومية التي أعمل بها.. أفتح الكومبيوتر، وأتفقد البريد تدريجيا.. لا شيء هناك سوى رسائل رئيس التحرير التنفيذي، التي تلاحقني أينما ذهبت.

أتركها دون فتحها، وأستعيد مهاراتي في التتبع الإلكتروني، لأعرف أين هي إيمان وماذا تفعل، فلا أصل إلى جديد.

أعود لرسائل رئيسي، أجده كالعادة يلح عليّ لإعداد أفكار وتصورات لصفحة الفكر،التي صرت مسئولا عنها بشكل مؤقت، بعد استقالة مشرفها وسفره إلى الخليج للعمل.

رئيس التحرير التنفيذي يدعى جمال سعيد، وهو في الواقع القائم الفعلي بأعمال رئيس التحرير،المنشغل ببرنامجه التلفزيوني.. ولا شك أنه المرشح الأبرز لخلافته المرتقبة، خاصة وأنه يثبت لأعضاء مجلس الإدارة أنه غير مرتبط بأسرة أو أصدقاء أو أي شيء في العالم بقدر ارتباطه بعمله.

تجذبني نزعة تتبع إيمان مرة أخرى، فأدخل على موقع المجلة التي تصدرها الجامعة التي تدرس بها في ألمانيا، وأتنقل بين الروابط، حتى أجد ضالتي في صورها.

كان مقالا موقعا باسمها، لم أفهم منه شيئا سوى العنوان القائل "**Warum Nicht?**" أو "لِم لا؟" بالعربية. نسخت المتن بالكامل، وقرأت ترجمته بالإنجليزية، والحق.. أنني لم أفهم مجددا ماذا تريد أن تقول!.. هي كالعادة تتحدث عن الجمود الذي يصيب الواحد منا، فيبقى مقيدا، ولا ينطلق وراء أحلامه ومساعيه.

نسخت رابط المقال في رسالة بريد إلى جمال واثنين من مديري التحرير، وأرفقت معه تقديما مختصرا عن شخصية إيمان ودراستها في الخارج، وعرضت فكرة إجراء حوار معها، مع الإشارة إلى أن ساعاها في مصر معدودة.

في الحقيقة، لم أتوقع أن يخرج عليّ جمال من مكتبه بمجرد قراءة البريد، ليشير إلى نيته عقد اجتماع.. هذا بالطبع هو أسوأ قرار إداري قد يصل إلى أذنيّ.. فالاجتماعات مع جمال تسير في اتجاه واحد فقط.. أن يستعرض مهاراته في شرح ما يريد، باستخدام كافة الأمثلة المتاحة، واستحضار الصور البعيدة، والتأكيد على أن أي اقتراح صدر من أحد الحاضرين كان يدور بذهنه للتو.

تركت مكتبي في صالة التحرير، ويممت وجهي شطر غرفة الاجتماعات، التي أعلم أنني لن أغادرها قبل ساعتين على الأقل، طالما يتعلق الأمر باجتماع مع جمال.

توقفت في منتصف الطريق، عند مكتب زميلي الأعزّ شريف، الذي يتصدر وحدة قسم الرياضة.. رمقني بنظرة ساخرة:

– يا صبح..

– صبحي صالح!!

– يا ظُرف..

– عندنا اجتماع مع جمال.

– شهوة الكلام عند هذا الرجل لا ترتوي أبدا.

– حقيقة.. لن أدخل بدونك.. لا أريد أي حوارات جانبية معه.

انتظرت قليلا، حتى فرغ شريف من كتابة شيء ما، ثم جذبته من يده، ودخلنا إلى غرفة الاجتماعات، حيث كان جمال في انتظارنا.

في مثل هذه الاجتماعات، يحضر مشرفو الصفحات، ومديرو التحرير، بجانب العبد لله كمسئول الديسك المركزي في الجريدة، ونسمع الكثير من آراء جمال الشخصية، وتجاربه الحياتية، وتوجيهاته في إدارة الأقسام، فيحثنا دوما على معاملة صغار المحررين من موقع الأبوة قبل أي شيء آخر، ضاربا المثل بمواقف تجمعه بأبنائه في البيت.

استرسل جمال كالعادة في كلامه، بينما أتبادل أنا وشريف نظرات ضاحكة ملولة، ثم فجأة أشار لي وقال:

– الأسطى عرض عليّ فكرة كنت أفكر في مثلها.. فكرة حوار مع صحفية مصرية، تكمل دراستها في إسبانيا.

– (أقاطعه) ألمانيا.

– أو ألمانيا.. شيء كهذا.. لا يهم.. متى يكون الحوار جاهزا؟

– لا أدري تحديدا.. لكن سأكلف به أحد محرري صفحة الفكر، وأمده برقمها، لترتيب حوار سريع.

– ممتاز.

عقب ساعتين من الإيحاء بالإنصات، خرجت أخيرا من الغرفة ورأسي يدور.. ذهبت إلى مكتبي في الدسك، بينما كنت أصارح شريف برغبتي في أكل أي شيء.

سألته من يرشح كي يقوم بالحوار مع إيمان، فقال إن ذلك يتوقف على شخصيتها، فعقبت بأنها غامضة شيئا ما ولكنها كباقي الفتيات، تقرأ لباولو كويليو وأحلام مستغانمي وأنيس منصور، وتهيم في شعر محمود درويش.

هنا ضحك شريف، بما فيه أن أي محرر قد يقوم بالغرض.

ناديت على منى.. خريجة العام الماضي، ودودة القراءة محتشمة الملبس، طيبة الطباع.. هي الفتاة التي تحب أن تكون ابنتك مثلها حين تكبر.

عرضت عليها الفكرة، فرحبت.. فأمددتها برقم إيمان، الذي لم أزل أحفظه عن ظهر قلب، بعد كل هذه السنوات، ولا أعرف لماذا لم تغيره.

أمددتها كذلك ببريدها الإلكتروني، وببعض الروابط لكتاباتها، المنشورة قبل أن تترك ممارسة الصحافة في مصر منذ عامين اثنين.

انهمكت طيلة الظهيرة في "التدسيك"، بعدما أشبعت جوع البطن. ثم رن هاتفي.. كان رقمها! نعم رقم إيمان!

– يا للسعادة! تتصلين بي!

– أنا لست نجمة كي أكون ضيفة حوار في جريدتك.

تصنعت البلاهة وعدم الفهم، ولكن يبدو أن منى قد اتصلت بها، وإن لم تكن قد أخبرتها أنها حصلت على رقمها مني، فبالتأكيد خمنت إيمان ذلك.

– ما يمنع أن تجري حوارا تتحدثين فيه عن خبراتك؟

– لا شيء يمنع.. ولكن لماذا رشحتني؟

في الحقيقة لم أكن أعرف سببا وجيها.. أخشى أن يكون السر هو الشغف الباطن بمطاردتها، ولكن ما أسهل أن تبدو انتهازيا!

– في الحقيقة عملي هنا لا يتجاوز الدسك.. ولكن لظرف ما، أتولى إشراف صفحة الفكر والثقافة.. ووجدت فيك ضالتي لملء مساحة كبيرة هذا الأسبوع.. أترفضين المساعدة؟

– أنت تريد ملء مساحة فحسب.. لست مقتنعا بالفكرة!

– الأمر ليس كذلك.. أنت مناسبة لحوار، وأنا في حاجة إلى حوار.. بسيطة!

– كالعادة تجادل.. حسنا.. سأرد على منى بالإيجاب.

– يسعدني.

انتهت المكالمة، لألتفت إلى الأوراق الملقاة أمامي، المطلوب "تدسيكها" بأسرع ما يكون، لأن سكرتير التحرير لن ينتظر طويلا.

كل حين وآخر أتذكر تعريفي لصحفي الدسك في الجريدة: هو ذلك الشخص، الذي يجلس على مكتبه، فيأتون له بأوراق بال عليها آخرون بأحبارهم، ليحول المكتوب إلى نصوص مفهومة من حيث المعنى، ومقبولة من حيث القالب والأسلوب، ولكنه لا يكاد ينتهي من عملية التطهير تلك، حتى يفاجأ باعتراضاتهم على تغيير "نكهة" الموضوعات.

أسلم الورق إلى سكرتير التحرير، وأتوجه رأسا إلى وحدة الرياضة، وبالتحديد عند مكتب شريف، الذي انتهى بدوره من "التدسيك".. فقسمه هو الوحيد الذي لا يمر على الدسك المركزي، ومن ثم تبقى علاقتنا بعيدة عن الشوائب المهنية.

أخبره بأن لا ارتباطات لي في ذلك المساء، فيدعوني إلى الانتظار قليلا، حتى يحضر عملية رسم الصفحة، ثم يعدل عن ذلك، ويوكل أحد المحررين نيابة عنه، فننطلق سريعا خارج المقر، نتنسم هواء الحرية.

***

يمر يوم كغيره، وتذهب منى لإجراء الحوار، وتعود به جاهزا للنشر.. لم أعدّل كثيرا في مضمونه. امتدحت المحررة الشابة إيمان، وأبدت إعجابا بآرائها، فلم أعرف أألهاها عن ذلك أم أشجعها.. فغيرت الموضوع بمطالبتها بالبحث عن فكرة جديدة للصفحة في الأسبوع التالي.

تتوالى الأيام، وتعود إيمان إلى ألمانيا في سكوت، كما جاءت.. ظللت شهورا متوقفا عن تتبعها بفعل التحضير للسفر، وبعد ذلك لم أقاوم أكثر، فعرفت أنها خُطبت لحاقان، ذلك الفتى التركي، الذي تعرفت عليه أثناء اغترابها.

هل انتهى بذلك الحنين غير المسبب؟ ليس بعد.

كنت قد عُدت إلى تتبعها، حين استقر بي الحال في باريس، بعد قبولي عرض للعمل في شبكة إخبارية فرنسية، لها إصدار عربي. ظننت في البداية أن تغيير المناخ المحيط فرصة لا تتكرر كثيرا، كي أنتشل نفسي من شباك الازدواجية، أو الانشغال بالمستحيل.

أبدت زوجتي سعادتها الغامرة بالإقامة في عاصمة العطور، فالمباهج هناك لا تنتهي، ما بين معالم ومقاهٍ وشوارع آسرة، لا يمل الإنسان التسكع فيها، ونهر يقطع المدينةَ، تتوسطه جزر كبيرة، وفوق ذلك سهولة في التنقل.

بدت لي باريس للوهلة الأولى مدينة أرضية، لا مجال فيها للروحيات.. لا وقت لمن يمشي في شوارعها كي ينظر إلى السماء، فالصلة تكاد تكون منقطعة بين عالمي الملكوت والناسوت، حتى الكنائس صارت مزارات سياحية، ولا يرتادها لغرض ديني إلا من بلغوا سن التقاعد، في الأعم الأغلب.

مر شهر فالثاني، وكنت قد تأقلمت على العمل، واستوعبت تماما شبكة المترو العملاقة، وكونت دائرة معارف معقولة بين

زملاء المهنة وأصحاب محال ومطاعم من العرب، وبالأخص المغاربة والجزائريين؛ ولكن بدأ الحنين إلى مصر يغزوني بقوة.

لا أعلم أبسبب الحنين إلى مصر صرت أرتاد الحي اللاتيني أكثر من أية منطقة أخرى في باريس، أم لكونه يتميز بالدفء، بفضل شوارعه الضيقة، وروائح الشواء العربي.

ساءت حالتي مع الأيام، ولا أعرف كيف وقّعت على عقد جديد، أستمر بموجبه في العمل عاما آخر.. ربما لرغبتي في عدم تعكير صفو زوجتي، أو عدم تفكيري في بديل ما.

***

تركت توقيعي على العقد، وعدت إلى مصر في العطلة السنوية. مر نحو أسبوعين في إنجاز مهمات لا بد منها، كالحصول على تصريح سفر جديد من وزارة الدفاع، ودفع بعض الأقساط المتراكمة، واستخراج عدد من الوثائق الرسمية، وبالطبع شراء عدد من الشطافات.

كان شوقي إلى مصر يسبقني إليها، ومع ذلك لم أشعر بارتياح كبير، حتى حين نمت في منزلي، وزرت أفراد عائلتي.. وحتى عندما التقيت بشريف، ليخبرني عن آخر نوادر جمال، الذي صار بالفعل رئيسا للتحرير. بل إنني لم أندهش حتى أو أضحك، حين وجدت ذلك الفتى صاحب موضوع الممثلات الإباحيات، الذي رفضته، وقد صار سكرتيرا للتحرير! هناك شيء مفقود، لا

أستطيع تحديده، ولو على وجه التقريب لا أقول التحديد. أتكون الجيزة؟

زرت مسقط رأسي! بعد غياب امتد قرابة خمس سنوات.. مررت بالميدان بعد تطويره، فبدا غريبا.. لكن وجوه المارة –على كثرها– كانت مألوفة لعيني.

كنت قد اتصلت بمحمد فاروق،ورتبت معه لقاءً،ولكن ذهبت قبل الموعد، لأقوم بجولة حرة،كانت محطتها الرئيسية "كليوباترا".

دخلت إلى المكتبة، لأرى عادل جالسا أمام حاسبه المحمول، وقد أكل الصلع نصف رأسه على الأقل. نظر إليّ، فهب من مقعده لاحتضاني.

عرفت أنه تزوج بالفعل من فتاة تصغره بأكثر من عشر سنوات، كانت تتردد لشراء الكتب الخارجية من المكتبة، الواقعة في مواجهة مدرستها الثانوية، واستمرت في الظهور بعد دخولها الجامعة، إما لشراء هدايا أو أي شيء آخر.

سررتُ كثيرا لهذا الخبر.. فها هو حجر قد حرّك المياه، التي ظننتها ستظل راكدة طيلة العمر. اطمأن عادل على أفراد عائلتي، وأوصيته بإبلاغ السلام لوالده الحاج السيد، الذي تصادف قيامه بالعمرة.

زيارات مثل هذه تشعرني بأنني سددت دينا قديما، تماما كما ذهبت وأنا في الجامعة لزيارة مدارسي من المرحلة الابتدائية وحتى الثانوية، لتحية المدرسين. أشعر بضرورة أن يكون الأمر أشبه بمباريات الذهاب والعودة، حين يتعلق بشخصيات أثرت في حياتنا، أو حتى لم تؤثر، ولكننا نرتعد لفكرة أننا قد لا نراها مرة أخرى.

شربت كوب الشاي، الذي قدمه لي عادل بعد وجبة من اللحم السمين، ثم ذهبت لمقابلة محمد فاروق في محطة حافلات السوبر جيت، حيث الجلوس على مقاعد خشبية مجانا، والاستمتاع بإزعاج الركاب وهم ينتظرون رحلاتهم.

في جلسات كتلك، أدرك أنني حين أفترش رصيف باريس، فإن ذلك ليس اصطناعا للتواضع أو التبسط. فلطالما نمت القيلولة بالمساجد والمصليات وسط المارة بالشارع، ومعدتي تعرف هضم أقسى أنواع الأطعمة، ولساني يجيد حوارات المقهى الشعبي بكل تحديثاتها، ولكنني للأمانة لست فرس رهان في المشاجرات، التي أتجنبها.

لا عجب أيضا ألا أجد غضاضة في الاستماع إلى أغنية لطارق الشيخ، بعد أخرى لفيروز، التي سميت ابنتي باسمها، فقلب الجيزاوي، أو ابن الحي الشعبي بوجه عام، يتسع للجميع.

تجد هذه التأملات موضعها في حديثي مع محمد فاروق، الذي يتطرق -بحكم ما بيننا- إلى العاطفة، وما معه من أخبار الرفاق القدامى وتطورهم الاجتماعي.

أخبرني عن أحد أصدقائنا أنه انفصل عن خطيبته، تلك التي أحبها في الجامعة. تعجبت حقا، فقد كان ذلك الثنائي من معالم جامعة القاهرة، شأنهما في ذلك شأن قاعة الاحتفالات ومدرج العيوطي ومركز خدمة المجتمع.

- لماذا انفصلا؟

- قالت له إنها تشعر بأن حبه لم يعد كما كان في أول القصة.. فتور أو ركود أصاب العلاقة.

- (ضاحكا) من المثير للسخرية أن كثيرا من الفتيات يرين هذا حتى قبل الزواج.. فماذا إذا تزوجن؟

- وهم كبير!

- بمعنى؟

- من الطبيعي ألا يحتفظ الحب بنفس التوهج مع الوقت! هو لا يموت، ولكنه يمر بأطوار، وهذه طبيعة البشر.. لسنا آلات كي نصدر نفس الأحاسيس بنفس الدرجة طيلة العمر.

- صحيح.. كثير من قصص الحب مبني على متلازمة الفراق والشوق.. فإن غابت فمن الطبيعي أن يحدث شيء من الثبات.. قد يراه هو استقرارا، وقد تراه هي ركودا.

نترك الأخبار جانبا، ونتحدث عن الذكريات.. ذلك المعين الذي لا ينضب لملء ساعات أي لقاء بيننا. وكانت السياسة مستهل النظر إلى الماضي، بدءً من يوم المظاهرة.. تلك المسيرة التي كانت إعلانا عن نشاطي في الجامعة.

"الله أكبر ولله الحمد".. "خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود".. "خيانة وغدر خيانة وغدر.. قتلوا الشيخ في صلاة الفجر".. "الانتقام الانتقام.. يا كتائب القسّام".

أحمق من يظن أن التيار الإسلامي في الجامعات يلقي بشباكه لتوسيع رقعته بالدهماء من الناس. الأمر يبدأ بالترشيح، ويمر بأكثر من مصفاة، حتى تجد نفسك في أولى الدوائر.

يمكن القول بأن التيار الإسلامي كان يعمل على محورين رئيسيين: محور الدعوة العامة لنشر قيم الدين والأخلاق والإيجابية وغيرها، ومحور التوسع التنظيمي، الذي يقوم على أسلوب شبيه بالانتخاب معقد التفاصيل.

بدأت بالهتاف في المسيرات، وعرفت طريق التنظيم لظروف استثنائية، لكن لم أستمر لأكثر من عامين مع الجماعة، التي تركتها في هدوء لخلافات، أغلبها يدور حول التنظيم؛ وحافظت على علاقة طيبة بغالبية الكوادر، الذين كنت على اتصال بهم أثناء نشاطي.

أذكر يوم اعتقالي، بعد المشاركة في أحد المؤتمرات. لم أمكث أكثر من عدة ساعات بالمبنى ذائع الصيت، بشارع جابر بن حيان بالدقي، ثم خرجت نهارا بعد تحقيق هزلي.

كنت معتزا للغاية بالساعات التي قضيتها رهن الاعتقال. شعرت حينها بصدور شهادة ميلادي الحقيقية..حتى على المستوى المهني.. لا أذكر من من أساتذة الصحافة تحديدا قال إنه لا يعترف بالصحفي، الذي لم يتعرض للاعتقال من قبل.

تجر الذكريات بعضها بعضا، فكان من غير المستبعد أن يتطرق حديثي مع محمد إلى إيمان. كان يعرفها من بعيد. أخبرته بأنها ارتبطت رسميا أخيرا بحاقان، وأن ذلك الخبر، رغم ما سببه لي من استياء، إلا أنه في الوقت نفسه أزاح حملا من على صدري.

– ربما كنت تشعر بتأنيب الضمير.

– لا أظن..

– لم لا؟ أنت بدأت حياة أخرى حين انفصلتما، وظننت أنها لن تنظر وراءها أبدا.. ولكن في كل مرة، كنت تكتشف أنها تحمل لك شيئا. أعلم كم هو قاس أن يشعر جندي مثلك أنه ترك الميدان.

– ربما.. يمكنك القول بأنني أسأت التقدير.

– ما يمكنني قوله هو أن ربنا رحمك.

- ........

غيرت الموضوع.. سألت محمد عمّا إذا كان يريد شيئا من أوروبا، فأجاب بالنفي شاكرا. أخبرته بأنني خصصت آخر أسبوع من العطلة السنوية لزيارة الجنوب الفرنسي.. بدءً من مارسيليا وانطلاقا نحو الجبال.

شعرت أنني تشبعت بمصر وبالجيزة.. أوصلني محمد إلى المترل وأنا لا أتوقف عن التفكير في العودة إلى الغربة من جديد.

***

قبل الفجر بدقائق، فاجأتني مكالمة من محمد.. رددت، فإذا بصوته وقد غالبه البكاء، يخبرني بأن والده قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

حاولت تهدئته قليلا، ثم سارعت متجها نحو مترله. أوقفت أول سيارة أجرة قابلتها عند الشارع الرئيسي، ولم يمض أكثر من ربع ساعة، حتى كنت أمام داره، وقد حفت به السيارات من أكثر من جهة.

ترجلت في الأمتار الأخيرة، وبدا لي محمد متماسكا للغاية من بعيد.. جئت من خلفه، ووضعت يدي على كتفه، فالتفت لي، لينفجر باكيا، وأضم رأسه إلى صدري.

لحظات الضعف الإنساني، بما يصاحبها من دموع، لا تظهر في المعتاد إلا أمام أقرب الناس إلينا. أعلم أن أباه كان يحبني، دونا عن كل أصدقاء ابنه، الذي كان يعلم ذلك.

قمت بدور السائق أغلب فترات ذلك اليوم، فمحمد لم يقو على قيادة سيارته، وليس له إخوة جاهزين للقيام بتلك المهمة.

مرت الخطوات بسرعة كبيرة.. تصريح الدفن، استدعاء المغسل، الاتصال بكبير العائلة كي يحضر ومعه مفتاح باحة المقبرة، صلاة العصر ثم الجنازة، ثم الركوب في سيارة الموتى إلى المقابر.

تماسك محمد، ونحن ممسكون بجثمان والده، بينما كنا نترل الدرج الترابي حفاة الأقدام. فككنا أربطة الكفن، ووجهنا الفقيد نحو القبلة، ثم همّ من نزلوا معنا بالخروج مهرولين، فيما بقيت أنا والصديق في غرفة الرجال بجوف القبر، الذي يضم جثامين أخرى.

بدأت دموع محمد تتساقط على التراب.. قبضت على يديه خوفا من انهياره في ذلك الموقف المهيب، وإن لم أحاول سحبه لأعلى.. هدأ، وحان وقت الصعود، بعد أن نادى كبار السن من الخارج.

لا أدري كيف يفقد أولئك المسنون الرهبة وهم في أواخر العمر على ما يبدو.. صحيح، لا تضمن نفس متى تموت، وكم

من شاب سبق كهولا في الوفاة؛ ولكن نظريا، هم الأقرب لذلك المصير.. فكيف يتماسكون؟

بعد عودتي إلى البيت، يبدأ جدار تماسكي في التأرجح قليلا.. أفكر في الموت. متى يأتي؟ ليس قلقا من المصير، بقدر ما هو رغبة في النهاية.

أتذكر قول صلاح جاهين: أنا شاب لكن عمري ألف عام. أشعر أن كثيرا من الأحداث مر بحياتي، وأنه لا يوجد ما يحفز على الاستمرار أكثر في هذه الدنيا. قد يعني النجاح العملي الكثير للإنسان، قد يعني السفر والترحال كسرا للروتين، قد تحمل الأسرة والذرية سلوى النفس.. ولكن يبقى هناك شيء مفقود.

كما يقول الإنجليز: يبدو أحيانا كثيرة أن العشب أكثر اخضرارا على الجانب الآخر. ففي باريس، يتملكني الحنين إلى الجيزة.. وفي نهاية العطلة السنوية، أتوق للعودة إلى فرنسا. أتزوج وأنجب، ويسيطر عليّ الحنين إلى إيمان. أمر بجوار الجامعة، فأتوق إلى مظاهرات الطلاب، ومخاطرة تحدي السلطات.. وفي المقابر، أدركت أنني حي، فرغبت في الموت.

***

استلقيت على الحشائش الممتدة، ونظرت إلى السماء، مستغلا استحياء الشمس واحتجابها خلف السحب. همست لزوجتي،

التي استلقت بجانبي، برغبتي في البقاء على هذا الوضع حتى آخر العمر.

– آه لو أمامي الآن زر إيقاف مثل **pause** يوقف الزمن.. لضغطته بلا تردد.

– لم أسمعك تقول هكذا منذ فترة.

– هذا يدعو أكثر إلى السرور.

كانت فيروز على مقربة منا، تعبث بالعشب، وتجري قليلا، ثم تتعثر فتسقط، فتسرع أمها إلى التقاط صور لها في وضعيات مختلفة.

كنا في الشرق الفرنسي، بإقليم سافوا العليا، قرب مدينة أنيسي الساحرة، التي كانت محطتنا التالية، ومنها وصلنا إلى مارسيليا، في أقصى الجنوب، حيث وقفت كثيرا على الصخور، أراقب مياه البحر المتوسط من الضفة الأخرى.

وجدت في أودية جنوب فرنسا وجبالها الخلاص من الملل، والشعور بالاسترخاء، ولكن الأيام الجميلة تمضي سريعا، فعدت إلى باريس بأضوائها.

مرة أخرى ينتابني الحنين، وإن كان قد فقد مصداقيته.. تمر الشهور والأحداث سريعا، حتى تهب أولى نسمات الربيع العربي.

أقام التوانسة الدنيا ولم يقعدوها في باريس، بعد نجاح ثورتهم. ثم انضممت إليهم في الاحتفالات، بعدما فوجئنا بثورة مصر.

كنت أتابع الفضائيات عن كثب طيلة الليل، وأشاهد الإسلاميين وقد بدءوا يتصدرون الساحة. تابعت زوجتي نظراتي وسألتني:

– أكنت أتتمنى أن تكون معهم؟

– ربما.. لا أعرف! الأكيد أنني لست موتورا منهم، ولن أتودد إليهم بناء على علاقتنا القديمة.

– لو كنت في مصر الآن، لاختاروك رئيسا لتحرير صحيفة حزبهم المنتظر.

– لديهم أكفأ مني.. وسني صغير.

– أهذا ما يمنع؟

أوقفت النقاش بشيء من التململ، خاصة بعدما شاهدت جمال في حوار تلفزيوني، وكأنه مثال الصحافة الشريفة، التي آن الأوان أن تأخذ حقها.. هو لم يكن عميلا للأمن مثلا، ولكنه كان يخشى ظله.. إنه عصر البطولات المجانية!

كنت أستغل شبكة علاقاتي الواسعة في مصر مع المصادر السياسية المختلفة، في إعداد أخبار وتقارير للشبكة التي أعمل لديها، فألقى استحسان رؤسائي وثناء زملائي، الذين لم أجد

بينهم من يقوم بدور شريف، كما كان الحال في الجريدة. مع الوقت، انغمست في العمل، حتى صرت أتتبع إيمان بمعدلات أقل.

عرفت لاحقا أنها كانت في مصر وقت الثورة، وأنها شاركت في المسيرات بالميادين، برفقة من صار زوجها -أعني حاقان- بينما كنت أنا هنا آمنا، أتابع الأحداث عن بعد.

ورغم دهشتي واهتمامي بأحداث مصر، بقيت كما أنا فاقد الدافع لأي شيء. أذهب إلى العمل.. أعود منه، أتجول في باريس أيام عطلتي الأسبوعية.

***

أذكر جيدا حين كنت أتناول كوبًا من الكاكاو، في المقهى الكائن بالحي اللاتيني، والذي يعمل به الأمين. ذلك النادل السنغالي، الذي يوحي في كل مرة بأنه يقدم لي الخمر، رغم أنني بالتأكيد لا أعاقرها.

كنت أجاريه كثيرا في ذلك الدور، بينما هو واقف خلف بار المشروبات الساخنة، ومن ثم عرف الكثير عني.. يتركني أهذي، ويختتم إنصاته بإطلاق عبارة تبدو حكيمة، دون أن تكون كذلك بالضرورة.

هو يعرف تتبعي لإيمان، وبعض جوانب حياتي.. وعلى مدار عام، عرف كثيرا عن شخصيتي. في مرة، كنت أخبره عن الحنين الذي يتنازعني إلى الماضي، فقرر الرد عليّ وعيناه تلمعان:

– يا أخي.. هناك امرأة تحبها.. وأخرى تتزوجها.. تعلمتُ هذا هنا.

ذات مساء، ذهبت إلى الأمين.. كان هو الوحيد الذي يمكن أن أشاوره دون أن يبدي اعتراضات كبيرة.. أحصل منه دائما على التأييد.

– اسمع.. سأذهب إلى ليبيا.. ماذا ترى؟

– أنت تخاطر بالكثير.

– أعلم..

– أنت صحفي ناجح، تقيم في باريس وأسرتك سعيدة هنا.. غير بعيد أن تحصل على الجنسية خلال سنوات قليلة.. امرأتك لا تعمل.. والوضع في ليبيا يبدو خطيرا جدا.. إنها ليست مجرد مسيرات أو ثورة تقليدية.. هي حرب مفتوحة.. لم تعد صغيرا لهذه المغامرات.

– أعلم.. لكن الأمر ليس قرارا على أية حال.. فتحوا في العمل باب التقدم لموفد خاص إلى ليبيا.. سأطرح نفسي، وليكن ما يكون.

– أليس من ذلك بُد؟

– (ضاحكا) فكرتني بعبارة بيتهوفن الخالدة: **Es muss sein**.. نعم.. ليس من ذلك بُد.. كما قال الموسيقار، وكما أقره عليها كونديرا*.

لم أفاتح زوجتي في هذه الإمكانية، لأنها كانت سترفض حتما، وأنا أريد الاستماع إلى ما يدفعني للذهاب فقط. لا أعرف لماذا أفكر في هذه المغامرة.. هي سراب أمل آخر في جسم أتكئ عليه وسط أمواج الحنين المجهول التي تتقاذفني.

ملأت استمارة التقدم لمهمة الموفد الخاص إلى ليبيا، ودخلت تصفية نهائية مع اثنين من زملائي، أحدهما جزائري والآخر سوري.

سريعا دخلنا إلى مقابلة شخصية مع رئيس القسم العربي، ليعرض كل منا مؤهلاته، والأسباب التي تجعله يرى نفسه الأصلح لتلك المهمة.

قلت في تقديمي الشخصي إنني مصري، ومن ثم سأعبر الحدود بسهولة من الجهة الشرقية، التي سيطرت عليها المعارضة، كما أن اللهجة المصرية مألوفة لعوام الليبيين، وأن من بني وطني ما يقارب المليون عامل في ليبيا، ما يعني قدرة أكبر على التأقلم.

---

*في رائعته "كائن لا تُحتمل خفته" استخدم الروائي التشيكي ميلان كونديرا عبارة الموسيقار الألماني لودفيج فان بيتهوفن وبنى عليها جانبا كبيرا من الأحداث.

بعدها بيوم واحد، أخطرتني الإدارة بأنني سأسافر إلى مصر خلال ثلاثة أيام، ومنها سأعبر برا إلى ليبيا.

أخبرت زوجتي بما قد كان، ولكن على هيئة تكليف مباشر من الإدارة، دون أن ألمح لها -ولو لحظة- أن الاختيار كان بيدي.

بكت في بادئ الأمر، فحاولت أن أخفف عنها:

- قلت لكِ كثيرا إنني سأحزن لو جاءني الموت دون أن أكون قد حاربت.. وهذه هي المعركة المتاحة أمامي.. لن أحمل أسلحة أو أتصدر الصفوف.. سأكون مراسلا فحسب.. وللصحفيين حماية خاصة.. لا تنسي أنني أمثل مؤسسة أوروبية في النهاية.

اشتريت كل الكتب التي تتحدث عن ليبيا، سواء من حيث التاريخ أو الجغرافيا، وتركت خلفي الربيع الباريسي، متجها إلى نظيره العربي.

كانت معي حقيبة معدات عبقرية: حاسوب صغير موصل بالإنترنت عبر الأقمار الصناعية، وهاتف جوال شديد الحداثة، لدرجة أن عاملين بالقسم الفني جلسا معي لساعات لتدريبي على تشغيله، وكاميرا فائقة الجودة، وبطاريات شحن، وكتب وأوراق وأقلام، ومشغل موسيقى، وصورة لابنتي، وغير ذلك من الأغراض الشخصية.

لم يكن هناك مدى زمني محدد لبقائي في ليبيا. في البداية كان الاتفاق على شهر واحد، قابل للتجديد حسب الأحداث، ومن ثم لم أحمل معي سوى سروال الجينز الوحيد الذي أرتديه، بينما اصطحبت الكثير من القمصان الرياضية، وعمدت إلى أن تكون حمولتي أخف ما يمكن.

قرأت الكثير في الطريق، واستذكرت أسماء أعادت إلى ذاكرتي منهج الجغرافيا في الثانوية العامة: سرير كلنشو، فزان، غدامس.. ثم انتقلت إلى التاريخ: السنوسية، الطوارق، المدن الخمس الغربية.. وهكذا.

كان طريقي طويلا من القاهرة وحتى منفذ السلوم البري، الذي وجدت عنده حركة تدفق تبدو عادية للغاية. أول ما لفت نظري، كان علم الاستقلال الليبي وهو يخفق على الجهة الأخرى.

***

دخلت إلى ليبيا في الأول من مارس، أي بعد أسبوع تقريبا من خطاب "من أنتم؟" التاريخي للعقيد. مررت بمدن طبرق ودرنة والبيضاء والأبيار، حيث بدا كل شيء تحت سيطرة الثوار. لم يكن هناك شخص غير مسلح في أي من شوارع المدن الأربع.. بدا لي الأمر وكأنه لعبة إلكترونية شديدة المحاكاة للواقع.

كنت أتحرك برفقة عدد من الصحفيين المخضرمين، من جنسيات مختلفة، ومن أعمار متباينة، حتى وصلنا إلى بنغازي آخر معاقل الثوار الآمنة، والتي تفتح طريقا نحو الغرب، مليئا بالمخاطر حتى معقل العقيد.

كانت هذه أول مرة أوفد فيها لتغطية نزاع مسلح. اقتصرت خبراتي في السابق على مؤتمرات دولية ومباريات رياضية في مصر. وحين سافرت إلى فرنسا، لم يختلف الوضع كثيرا.. كنت أقابل القادة السياسيين العرب، الذين يزورون باريس، وربما أغطي بعض الفعاليات الثقافية.. ولكن كل ذلك على سبيل الاستثناء.. فالقاعدة هي تواجدي في المكتب أغلب الوقت.

وسط هؤلاء الصحفيين في بنغازي، شعرت بالضآلة أو انعدام الخبرة. بدأ بعضنا يتعرف على الآخر مع الوصول إلى النُزُل الذي سنقيم فيه. ولدهشتي، كانت منهم مجموعة على معرفة سابقة، التقوا قبل ذلك في العراق، ومنهم من ذهب إلى أفغانستان، وبعضهم كان في مصر للتو، لتغطية الأحداث هناك، ثم عبر الحدود غربا.

لم يكن أي منهم عربيا، فيما بدا، ومن ثم اكتفيت بالتعرف على بعضهم، وخلوت إلى نفسي قليلا، كي أرسل أول تقرير مصحوب بمقاطع مصورة عن الطريق حتى بنغازي.

اتضح لي أن النُزُل الذي سنقيم فيه شديد الشبه ببنايات المدارس.. هناك فناء، والغرف تبدو كالفصول، وبعض العبارات التربوية مكتوبة على الجدران..ومع ذلك لم تكن هناك لافتة على المدخل، أو مقاعد من تلك المخصصة للطلاب، أو سبّورات. لم أكترث كثيرا.. فلربما اضطر الثوار إلى استغلال بعض المنشآت في استضافة العدد الهائل من الصحفيين، خاصة بعد تكدس الفنادق بمن وصل منهم كدفعة أولى.

كان يقوم على مرافقتنا عدد من الثوار، تعرفت من بينهم على وليد، الذي أرشدني إلى غرفتي بالطابق الثاني، وأخبرني بمكان الحمام في نهاية الدهليز.

ألقيت حقيبتي على الأرض، وذهبت إلى الحمام في نهاية الطابق، ثم لاحظت أثناء خروجي وجود مصلى في الزاوية المقابلة.

بدأت أصلي المغرب والعشاء جمعا، وبينما كنت في مستهل الفريضة الثانية، جاءني ذلك الشعور المحبب بأن هناك من يقف عن يميني شبه ملتصق بي، وقد شرع في مشاركتي الشعيرة، فجهرت بالقرآن، بينما ظل هو مرسلا يديه، بعد أن أدى تكبيرة الإحرام.

بعد التسليم.. نظرت إلى يميني، وسلمت على أخي العقيدة. كان شابا مثلي، في المنعطف الأخير من العقد الثالث من العمر..

خفيف اللحية، ويبدو من بلدان الشرق الأوسط.. ظننته تركيًا للوهلة الأولى.

– أنت عربي؟

سألني بالإنجليزية، فأومأت برأسي أن نعم، ثم قدمت له نفسي، وأشرت إلى أنني من مصر تحديدا.

– مرحبا.. اسمي مجتبى حيدري.. لعلك خمنت الآن أنني إيراني.

قالها وهو مبتسم، فشعرت بشيء من الارتياح تجاهه. أراح كل منا ظهره إلى جدار بالمصلى، وبدأنا نتعارف أكثر. أخبرني بأنه يعمل لحساب قناة إيرانية ناطقة بالإنجليزية.. وأنه يعرف بعضا من العربية، بما قد يساعده على التعامل مع الليبيين.

أخبرته بأنني رغبت في السابق في زيارة إيران، وأنني لا أعرف بالفارسية سوى عبارتين اثنتين فقط، للسؤال عن الحال، وعما إذا كان المخاطَب يتحدث الإنجليزية أم لا.. فضحك.

بدا لي مجتبى طيب المعشر، على الأقل هناك من سيشاركني الصلاة في هذه البناية. كان لدي خطة للصباح التالي بالذهاب جهة الجنوب، نحو أجدابيا، في أول تماس حقيقي مع خط النار، وهي التجربة التي اتفقت ضمنيا مع مجتبى أن أخوضها معه، كونها الأولى لكل منا.

***

في الصباح، ناديت على وليد.. كان يقف بجوار رفاقه في فناء النُزُل. أخبرته برغبتنا في الذهاب إلى أجدابيا، فقال لي إن هناك سيارة تخرج إلى هناك كل ساعة تقريبا.

نزلت أنا ومجتبى، وكل منا يحمل معداته في حقيبة ظهر خفيفة، فاصطحبنا وليد حتى سيارة نقل، أخبرنا أنها تتجه إلى حيث نريد.

ألقيت التحية على السائق، وصعدت ورفيقي إلى سطح صندوق النقل، برفقة بعض المنقولات، التي تنوعت ما بين أغذية وأغطية وإسعافات أولية، فيما بدا. ثم أرسلت تقريرا ثانيا عن رحلة مع الثوار من بنغازي إلى أجدابيا، التي وصلناها قرب منتصف الظهيرة.

كانت المدينة شديدة الشبه ببيت للأشباح، وكلما مضينا صوب طرفها الغربي، أدركت أننا نقترب أكثر من خط النار.

كان مظهر الثوار يختلف هذه المرة عما كان عليه في المدن السابقة. كلهم مسلحون بالطبع، ولكن لحاهم أكثر طولا وأقل تهذيبا، وكذلك شعر الرأس. مر بذهني أن جيفارا لو كان حاضرا بيننا، لكان أقل الناس شعورا بالاغتراب.

كان الجميع على أهبة الاستعداد، رغم أن الوضع بدا هادئا.. استفهمت عما يجري، فعرفت أن هناك أنباء قادمة من مرسى البريقة –حيث كانت تدور معركة حامية الوطيس– بأن مخازن الذخيرة في أجدابيا قد تكون هدفا لطيران العقيد.

طرق الملل بابي، بينما الجميع يستعدون لغارة وشيكة، فجلست على الرصيف، لأتحدث مع مجتبى عن أي الفريقين يشجع في بلاده: بيروزي أم استقلال.. وقبل أن يجيب، سمعت صوتا كاد يصم أذنيّ، تداخل معه تكبير الثوار المسلحين.

بعُد الصوت قليلا، ثم عاد، وأنا واقف كأبله.. فإذا بمجتبى يجذبني من يدي بقوة، لأركض معه صوب ما يشبه المخبأ الأرضي، حيث تجمع عدد من الرجال، يبدو أنه شاهدهم يسبقوننا إلى هناك.

فهمت بعد ذلك أن قوات العقيد بدأت القصف لتدمير مخازن الذخيرة فعلا. واختلطت أصوات الرصاص بالتكبيرات القادمة من الخارج. أردت الخروج لتصوير بعض اللقطات، فقام أكبر الرجال سنا فنهرني، فامتثلت له فورا.

مرت نحو ساعة، خرجنا من المخبأ بعد أن نادى من كانوا بالخارج. سقطت طائرة تابعة لقوات العقيد؛ ولا أدري كيف. صرت أطوف حولها بعدستي، وأسرعت بإعداد تقرير وإرساله فورا. حاولت إحصاء عدد القتلى، فلم أتبين.. كانوا بين ثلاثة وخمسة.. هناك اثنان غارقان في الدماء، ينازعان الموت.

مع اقتراب المساء، ركبت مع مجتبى في سيارة أخرى، عائدة إلى بنغازي. وصلنا مع حلول بوادر الليل، فألقى كل منا ما أثقل كتفه، وذهبنا للنوم مبكرا، لا أدري أبفعل الإنهاك، أم لإراحة الأعصاب.

مكثت قرابة الساعة متقلبا في فراشي، لا أعرف النوم، رغم رغبتي فيه، والأمان الذي يحيط بالمدينة، مقارنة بغيرها. لم يكن هناك سبب واضح لارتفاع معدلات ضربات قلبي،والتنميل الذي أصاب يديّ وقدميّ تحديدا.

شعرت بالعرق البارد يزحف على جبيني، وبخوف شديد من مجهول لا أعرفه. لا يوجد أدنى مبرر لذلك الارتباك، الذي يتصاعد بشكل يزيد من خوفي.. ربما يكون الموت؟

نهضت من الفراش،وتوجهت صوب غرفة مجتبى،حيث قرعت الباب بقوة، ففتح لي مفزوعا.

– ماذا بك؟

– لا أعرف.. ضربات قلبي متسارعة للغاية، وأشعر بصعوبة في التنفس.

دعاني إلى الداخل، وبدأ في قياس نبضي بطريقة بدائية، ثم ابتسم وقال:

– هذا ليس معدلا مخيفا.. أنت متوتر فحسب.

– مستحيل! أشعر بخوف كبير.. ألا يوجد أطباء هنا؟

– أبي طبيب قلب، وعملت معه كثيرا، وقضيت عاما في كلية الطب قبل أن أتوجه للصحافة.. لا تقلق.

– هذا ليس وقت مزاح.. أريد طبيبا لا ابن طبيب!!

– صدقني ستهدأ الآن خلال دقائق.. أنت لست مصابا بأي مرض قلبي.

كدت أنفجر فيه غضبا، ولكن شعرت مع الوقت بتحسن نسبي، حتى عدت إلى طبيعتي، بعد مرور نحو عشر دقائق.

– تحسنت بالفعل.. ماذا كان ذاك؟

– نوبة هلع.

– ماذا تعني؟

– أن تشعر بهذه الأعراض، فهذا يعني أنك تتعرض لنوبة هلع.. ولا تسل عن السبب، فأحيانا كثيرة تكون غير مبررة.. أعتقد أن توترك اليوم يدفعك إلى ذلك.. لا تقلق.. لن تتكرر إن شاء الله.

عدت إلى غرفتي، ومع ذلك لم أستطع النوم، حتى صليت الفجر، وبدأت خيوط الصباح الأولى في الظهور.

***

استيقظت بعد الظهر، فمررت إلى غرفة مجتبى، فلم أجده.. نزلت إلى الفناء، فوجدت وليد يخبرني بأن الصديق الإيراني قد ركب سيارة متجهة إلى أجدابيا من جديد،وأنه أوصاه بالاطمئنان عليّ إذ كنت مرهقا خلال الليل.

شكرت وليد، واقترحت عليه أن يرافقني في جولة إلى قلب المدينة، فاستأذن من قائده، فوافق.

كنا نمر بمنطقة سوق السجاد، وأتحدث مع المارة لتدوين بعض آرائهم، لإعداد تقرير اليوم، ثم فوجئت بصوت يأتي من خلفي:

- تركتني وجئتَ إلى هنا يا أسطى!!

صُعقت للوهلة الأولى، فمن ذا الذي يعرفني هنا، فضلا عن أن يعرف كُنيتي.. استدرت خلفي، فإذا بمحسن! جمعنا عناق حار، وتساءل كل منا عما أتى بالآخر إلى هنا.. فكان الجواب واضحا: "أكل العيش".

ضيقة للغاية دنيا الصحافة! أعرف أن محسن قضى جزءً من طفولته في ليبيا لظروف عمل والده، ومن ثم كان أول من بادر في جريدته بطلب الذهاب إلى بنغازي.. دوما كان يربطه الحنين بهذه الأرض، ويتذكر أصدقاء الصبا.. وها هو الآن يقيم عند أحدهم.

أخبرت وليد بأنني صرت في يد آمنة.. وأن بإمكانه العودة إن أراد، فقد عرفت الطريق، ورغبت في أن أقضي اليوم برفقة محسن أمام البحر.

إنه المتوسط مرة أخرى.. أذكر جلساتي أمامه من الضفة المصرية، حين افترشت صخور بئر مسعود بالإسكندرية، وحرقت

تبغ ست لفافات في يوم واحد من أيام الاكتئاب العاطفي. أتذكر أيضا حين زرت بيروت لمدة يومين فقط، وشاهدت أمواجه من الضفة الشرقية.. ولا أنسى حين رأيته من الجهة الأخرى، وقتما كنت في مارسيليا، برفقة أسرتي الصغيرة.

ها أنا الآن مع شاطئ جديد، يطل على هذا البحر الذي يبدو مختلفا في كل مرة. أمامه أشعر وكأنني أصبت بإسهال الذكريات، وقد وجدت ضالتي في محسن، الذي بادرته بالسؤال:

- هل لو عاد الزمن لاخترتَ الصحافة؟

- لا أعرف.. ربما نعم.. ربما لا.. لَمَ تسأل؟

- أحيانا أشعر بالملل من هذه المهنة، رغم كل ما تتيحه من خبرات وتجارب.. إن كل ما نفعله هنا -وفي أي مكان آخر- لن يكون أكثر من أرشيف على الأرفف، أو ربما بتقنية رقمية.. لن يذكر أحد شيئا مما كتبناه.. نحن نرصد التفاصيل ونترك العموميات للكتاب الكبار.. ولو فكر واحد منا في مجاراتهم وأصدر كتابا، فسيصنف على أنه عمل تجاري، لن يحظى بطبعة ثانية أبدا.

- كنت أكره الصحافة أثناء دراستها.. الآن أراك أنت تريد الفكاك منها.

- هل تذكر يوم التخرج؟

– نعم..

– لماذا لم يردد أي منا قسم الصحافة، بينما تقمص بقية زملائنا الدور، وكأنهم في فيلم الرباط المقدس؟

– أعرف أنك كنت ناقما على هذه المهنة منذ أن بدأت تمارسها.. أنت تكره النظريات البعيدة عن الواقع.

– ربما.. المهم أنني لم أؤد هذا القسم، وإلا لصرت أنتهكه يوميا.

غربت الشمس أمامنا، وسارعت بإرسال التقرير. عرفت أن محسن يعتزم البقاء في ليبيا طويلا، بل إنه يفكر في الذهاب إلى الغرب – بحرا بالطبع–حيث يحكم العقيد سيطرته على طرابلس، وتدك قواته مدينة الزاوية.

عُدت إلى النُزُل.. سلمت على وليد، وصعدت الدرج قاصدا غرفة مجتبى، الذي لم يكن قد عاد بعد.استعنت على الأرق بالقراءة،حتى شعرت بأنني في حضرة النعاس، فاستسلمت له، وأغضمت جفنيّ.

في الصباح أيقظني مجتبى بنفسه.. كان قد عاد من أجدابيا في ساعة متأخرة من الليل.. صلينا الجمعة معا في بنغازي، وتوجهنا إلى الجنوب مرة أخرى.

كان الوضع هادئا شيئا ما في أجدابيا، فأراد مجتبى أن نتقدم صوب مرسى البريقة، فرأس لانوف، حيث وردت أنباء عن معركة دامية هناك.

طاوعته في المضي قدما حتى البريقة، وهناك جاءتنا أنباء عن سيطرة الثوار على رأس لانوف، واستعدادهم للمضي قدما نحو بن جواد في اليوم اللتالي.

عدت إلى النُزُل بلقاءات مع من حملوا السلاح وواصلوا التقدم، ومر يوم السبت طبيعيا، دون أن أذهب إلى أجدابيا.. فقد كنت أحاول لقاء أحد مسئولي المجلس الانتقالي دون جدوى.

مع الوقت، خبُت نشاطي، وتكاسلت عن الذهاب غربا.. ثم جاءت أنباء تقدم قوات العقيد حتى أجدابيا، بعد نحو عشرة أيام.. هنا تدخل العالم أخيرا، وقرر فرض منطقة حظر جوي، خوفا من مجزرة في بنغازي.

في واحدة من الليالي، كانت كل بيوت بنغازي تتوقع قصفا جويا، يأتي على الأخضر واليابس، أسوة بمدن الغرب والوسط. في ذلك الوقت، كنت أجلس إلى جوار مجتبى، على رصيف فناء النُزُل، على مقربة من وليد ورفاقه.

وجدت لدي رغبة كبيرة في أن أبوح له بما في داخلي:

– أتعرف؟ لا أدري سببا لمجيئي إلى هنا.. طلبت ذلك دون تكليف مسبق.. وها أنا معك. كدت ألقى مصرعي في أجدابيا، وعرفت تجربة الهلع للمرة الأولى، ومع ذلك لا زلت أشعر بالملل، بل أرغب في العودة إلى بيتي.

– أي بيت؟ في مصر أم فرنسا؟

– يستويان!

– ....

– أخبرني.. لماذا لم تتزوج إلى الآن؟

– الأمر ليس بهذه السهولة..

– لا تبدو هناك عقبات مادية على ما أظن.. حب من طرف واحد؟

– (ضاحكا) ليس بالتحديد..

– اسمع يا مجتبى.. أكره لعب دور الناصح الأمين.. واعذرني لو اقتحمت خصوصيتك.. ولكن إن كان لدي شيء لأقوله، فهو أن تمضي في طريق حبك إلى نهايته.. لا يوجد أسوأ من طيف حنين إلى الماضي، يمر بمخيلتك وأنت متزوج ولديك أبناء.. افعل كل ما بوسعك، حتى يرضى ضميرك لاحقا، وتتقي ذلك الطيف.

– أفهم ما تقول.. دعنا من ذلك.. كنت تريد زيارة إيران.. متى تحب، أخبرني، وسأرسل لك الدعوة.

***

كان يقتلني الملل أحيانا كثيرة، فأعود إلى أرشيف موسيقي اصطحبته معي على فلاشة. تُدوي من غرفتي الأنغام والأصوات. في الليالي الصافية الثقيلة، كنت أستمع إلى فريد الأطرش دون

سبب واضح.. "قلبي ومفتاحه" أو "يا مقبّل يوم وليلة".. في هذه الأغنية الأخيرة، كنت أتساءل أين تكون بلد المحبوب، تلك التي يتحدث عنها موسيقار الأزمان؟ لا أعرف حقيقة.

في ليلة أخرى، ساد فيها القلق من اقتراب القصف إلى بنغازي، نزلنا إلى الفناء، حيث وقفت مع وليد ورفاقه.. اصطحبت معي الحاسب في تلك الليلة، واخترت أغنية "يافا" بصوت نصري شمس الدين.

كانت المرة الأولى، التي تصل فيها إلى مسامع عدد من الثوار، وانسجموا كثيرا مع كلماتها، المستوحاة من بيئة بحرية، كما هو الحال في غالبية مدن ليبيا، حتى بدءوا في ترديد بعض المقاطع، بينما انشغلت بالترجمة لمجتبى.

قد يبدو غريبا أن يتحمس الثوار في بلد عربي لأغنية عن القضية الفلسطينية، بينما هم يعانون القمع من النظم "القومية" التي طالما رفعت تحرير القدس شعارا وحجة ظاهرة، لتجييش الجيوش، وإلقاء العدو في البحر، بينما كان آباؤنا وإخواننا من يلقى في السجن.. الأمر كان أشبه بقميص عثمان، كما قال نزار قباني.

أقول قد يبدو ذلك الحماس غريبا.. ولكنه ليس كذلك.

في ليالٍ كتلك أيضا، كنت أغني بمفردي.. صوتي قبيح بحق، ولكن هذا ليس مانعا للغناء، طالما لا أجبر أحدا على سماعي، أو

أتكسّب جراء ذلك.. فالغربان لا تلتزم الصمت، لمجرد أنها تنعق إذا فتحت منقارها.

قابلت محسن في نهار آخر، طرحت عليه تعجبي الشديد من وجودي على تلك الأرض.. فبعد فترة من الزمن، تفقد انبهارك بأي جديد، وتدرك فيه اعتيادية قاتلة، كما لو أنك كنت شاهدا تاريخ كل تلك المباني منذ تشييدها إلى الآن. كنت أقول له إن أي أحمق في الكون بإمكانه إجراء نفس العمل الذي أقوم به، لو كان موفدا مكاني. كانت قناعتي قد اكتملت بأن مساحة الإبداع في هذا العالم باتت محدودة للغاية، وأن الشيء القليل للغاية هو من يملك فلان وحده أن يفعله.

بعد فترة صمت، قال لي:

– أتعرف؟ لا زلت أحتفظ بكراس لك من أيام الجامعة.. إنه يعود للسنة الثانية تقريبا.

– حقا؟ لعله ممتلئ عن آخره بالهذي..

– صحيح! فكلما تصفحته أنفجر ضحكا.. كنت تكتب عن أمور شتى، ليست ذات علاقة على الإطلاق بما كان يقوله المحاضر.

– فلتعده لي حين نلتقي في مصر.

– غالٍ والطلب رخيص.

خلال جلساتي تلك مع محسن أو محمد فاروق، أتأمل كيف تعرضت علاقات الصداقة لعمليات تصفية متتالية، ولكن يبقى الرجال دوما أكثر حفاظا على علاقات الصداقة، إذا قورنوا بالفتيات.. فرغم المسئوليات والانشغال بالأعمال، فإنك قد ترى للرجل أصدقاء، ولا ترى لزوجته ولو صديقة واحدة بعد فترة.. دون أن يكون ذلك مثار تعجب أحد.

***

بمجرد فرض الحظر الجوي، قلت لوليد إنه طالما ليس في حوزة العقيد طائرات، فإن المعركة ستكون متكافئة أكثر من أي وقت مضى. ولكن مرافقي الليبي، بهيئته الجيفارية تلك، بدا أكثر تحمسا، وواثقا من الانتصار، طال الزمن أم قصُر.

لن أنسى أبدا يوم قال لي "ما من دار في ليبيا إلا وفيها طالب ثأر".

تذكرت ذلك القول وأنا جالس في مكتبي بباريس، بعدها بعدة أشهر، أتابع مشهد القبض على العقيد، ثم سماع نبأ مقتله بعدها بدقائق.

لم أمكث في ليبيا طويلا بعد فرض الحظر، فقد تم استدعائي من قبل الإدارة، وإرسال موفد آخر بدلا مني، كنوع من التناوب، وهو القرار الذي وجد هوى في نفسي، بعد أن افترسني الملل، واشتقت إلى الرحيل.

كنت أودع بنغازي في أواخر مارس، ومعها ودعت محسن ومجتبى.. لم يحدث أن التقيا أبدا.. اتفقت مع الصديق الإيراني على أن ألبي دعوته لزيارة بلاده، متى تسمح الفرصة بذلك، في حين اقترحت على محسن أن يعود معي إلى مصر، فيمكث يومين مع ذويه، وأستقل أنا الطائرة إلى باريس.. فكان ذلك.

أصر محسن أن أبيت عنده ليلة، لأن طائرة باريس كانت في اليوم التالي، كما أنه يسكن قريبا من المطار، فوافقت في ظل أن بيت أبي وأمي كان خاويا لقيامهما بالعمرة.

كنت مستلقيا على فراشه، بينما كان يدخل الغرفة حاملا كوبين من الشاي، أعدهما والدته، فشكرهما من خلف الباب، وطلبت منه بعد ذلك أن يريني ذلك الكراس القديم، الذي احتفظ به.

أخذ يعبث قليلا بين كومات من الورق والكتب، ثم خرج بالكراس أخضر اللون وأعطانيه.

عرفت لماذا كان محسن يضحك في كل مرة يمرر عينيه عبر صفحات ذلك الكراس، فمحاولاتي الشعرية الرديئة تبعث على ذلك بلا شك.. في أحد الأسطر كتبت:

"إليكِ أنا الأفقر.. يا ذات الرداء الأحمر".

لا أذكر تحديدا هل كانت إيمان ترتدي اللون الأحمر، أم أن تلك المحاولة الساذجة كانت من وحي فتاة أخرى، سبق وأعجبت بها.

مكثت طيلة تلك الليلة في رحلة إلى الماضي، عبر صفحات ذلك الكراس،حتى جاء الصباح،فتوجهت صوب منطقة التجنيد، لتجديد تصريح السفر.

كنت قد غفوت لدقائق معدودات، وحين وصلت إلى المنطقة العسكرية، شعرت بقشعريرة في جسدي، كتلك التي كنت أشعر بها خارج أسوار مدرستي الإعدادية، قبل طابور الصباح.

سلمت الأوراق، وانتظرت تسلم التصريح بعد ساعتين، فقررت التسكع في المنطقة شبه الصحراوية المواجهة للمعسكر.

جلست على إحدى الصخور في الأرض غير مترعج بالشمس الربيعية. في نفس تلك البقعة كنت أهاتف إيمان قبل سنوات، وأنا أتقدم بأوراقي للخدمة العسكرية للمرة الأولى. كنت أوقظها من النوم بمكالماتي، فيُكسِب النعاس صوتها حلاوة مضاعفة.

كتبت رقمها على شاشة هاتفي.. كالعادة أحفظه عن ظهر قلب.. أجريت الاتصال، لتأتيني الإجابة المتوقعة "الهاتف الذي طلبته قد يكون مغلقا أو خارج نطاق الخدمة".

لا أدري.. هل اتصلتُ بها ليقيني بأنها خارج البلاد فلن ترد، أم أنها رغبة الاستماع إلى صوتها، ولو كان الأمل في ذلك شديد الهزال؟ أميل للاحتمال الأول، لأنه يريحني أكثر.

كنت أفكر فيما قد يكسر الملل مستقبلا.. زيارة الأماكن التي رغبت فيها يوما! وقد تذكرت منها الكثير حين تصفحت

الخواطر والمبعثرات، التي دونتها في الكراس، الذي وجدته عند محسن.. واستقرت برأسي بعض الأفكار.

تسلمت التصريح،وانطلقت إلى محسن، وخلدت للراحة حتى حان موعد الطائرة بعد منتصف الليل بساعتين، فركبت سيارة أجرة حتى المطار، وانشغلت طيلة الرحلة بالكتابة العبثية.

***

في صالة الوصول بمطار شارل ديجول، وجدت زوجتي في انتظاري.. وما إن رأتني، حتى غمرت الدموع عينيها الواسعتين.

عانقتني، فسألتها عن فيروز، فأخبرتني بأنها تركتها لدى جيراننا الجزائريين.. فاقترحت عليها أولى الأفكار التي واتتني في صحراء معسكر التجنيد:

– في طريق العودة من المطار، سنمر على سان دوني.. ما رأيك في جولة هناك؟

– لا أقصد المعارضة.. لكن ألست مجهدا ومعك حقيبتان؟

– نعم.. بالفعل.. ولكن أريد زيارة مكان ما هناك..

– كما تحب.

انتابت زوجتي نوبة من الضحك لدى وصولنا إلى سان دوني، حيث وجدتني أشتري تذكرتين للقيام بجولة تفقدية لملعب فرنسا، الكائن بتلك الضاحية، والذي سبق واستضاف نهائي كأس العالم.

التقطت لي زوجتي كثيرا من الصور الفوتوغرافية، وأعجبتني للغاية تلك الصورة، التي أعطيت فيها انطباعا بالانفعال، وأنا أقوم من مقاعد البدلاء، وكأنني مدرب أقوم بتوجيه لاعبي فريقي.

ضحكت كثيرا وأنا أعيد مشاهدة الصور، في طريقنا إلى حيث نسكن.

اعتذرت للجيران، لأن لا شيء في ليبيا في هذه الظروف يمكن شراؤه كهدايا، فضحكوا جميعا، وحملت فيروز، التي كانت قد غرقَت في النوم، حتى منزلنا.

لم أرجع إلى ليبيا مرة أخرى.. فالإدارة كلفتني في اليوم التالي لي في باريس بإعداد ملفات عن الوضع هناك، وتنسيق التقارير الواردة.

•••

ركزت بصري كثيرا داخل أوروبا، أيقنت أن هناك الكثير لأفعله.. اصطحبت الأمين ذات مرة في مباراة لفريق باريس سان جيرمان، وأعجبتني كثيرا أجواء المدرجات.. ودفعني ذلك لوضع خطة لزيارة الملاعب التي أريد. ولكن اقتراب الموسم الكروي من نهايته أدى إلى إرجاء التنفيذ للموسم التالي.

كانت خطتي،الطموحة للغاية،تعني أن أزور مدريد ودورتموند وميلانو، وأن أعود إلى مارسيليا مرة أخرى! فكرت كذلك في الذهاب إلى إنجلترا، ولكن كثرة الملاعب هناك أصابتني بالدوار.

حولني شغفي بكرة القدم من مشجع إلى لاعب هاوٍ.. فذهبت ذات مساء للعب مباراة مع جيران، كانوا قد اعتادوا ارتياد ملعب قريب بشكل أسبوعي.

كانت لي مباراة واحدة معهم،استعدت خلالها كل انكسارات المنتخب المصري أمام الشمال الأفريقي.. فكل واحد من هؤلاء الجزائريين والمغاربة مشروع لاعب في حد ذاته..كما أن اعتيادهم على اللعب أكسبهم لياقة، كنت أحوج ما أكون إليها.

قضيت الأسبوع التالي أعاني شدا في العضلات، وآلاما في المفاصل مع كل حركة أقوم بها.. وعدتهم بالعودة إلى اللعب بمجرد أن أتعافى.. وهو وعد في الهواء بالطبع.

ويبدو أن الحماس لشيء ما يولد الحماس لأشياء غيره.. فقضيت الصيف تحت سيل من الأفكار الجديدة.. فكرت في تعلم لغة أوروبية أخرى.. استبعدت الألمانية، ظنا مني أنها ستجرني أكثر نحو عالم إيمان.. ونظرت إلى الإيطالية والإسبانية، باعتبارهما الأسهل والأقرب للفرنسية، التي أجيدها بالفعل.

بضعة أسابيع قضيتها، حتى وصلت إلى درجة مبتدئ في كلتا اللغتين.. ساعدني على ذلك زملائي،ممن يتحدثون أيهما في العمل.

ومع الوصول إلى أقرب شاطئ في بحر اللغة، أخلد للاسترخاء، وتخبت عزيمتي للسباحة من جديد.. ومن ثم أبحث

عن فكرة أخرى.. أستبعد خطة تجوال ملاعبي المفضلة في أوروبا، وأتذكر مجتبى! نعم كنت في فترة المراهقة أود زيارة بلاد غريبة.. ربما لو سألت أي صبي يافع أي البلاد يريد أن يزور، لماَ خرجت خياراته عن الدول المعروفة، كالولايات المتحدة وغرب أوروبا، وربما الصين أو اليابان أو الهند.

كانت خياراتي مختلفة.. أذكر أنني كنت أود الذهاب إلى آسيا الوسطى وأوزبكستان خصوصا، لزيارة بخارى وسمرقند، فكرت أيضا في أمريكا اللاتينية؛ تحديدا كولومبيا وتشيلي، ولا أعرف السبب! بالطبع فكرت في إيران، ولهذا دعاني ذلك الزميل.. ولكن الخيارات الأغرب كانت إريتريا، ودولا أفريقية أخرى.. أذكر ذات مرة في منامي أنني رأيتني في جيبوتي!!

أبدأ تصفح الإنترنت، والتنقل بين شركات الطيران، لمعرفة كلفة السفر إلى تلك المقاصد غير المألوفة.. أبحث أيضا عن متطلبات القنصليات، للحصول على تأشيرات الدخول.. أعلم أن وجود كلمة "صحفي" في خانة المهنة قد يسهل المهمة، ولكنه قد يجعلها صعبة للغاية في بعض الحالات.

ولكن الحماس يخبت! سريعا كما بدأ! لا أدري أيكون ذلك بسبب العمل، أم لاستثقال فكرة الرحيل بأسرة تضم زوجة وابنة صغيرة، لا ناقة لهما ولا جمل في خططي الوهمية تلك! لن أتركهما بالتأكيد؛ ولكن لمَ أصطحبهما معي إلى ما لا يروق لهما؟

أدرك أن فكرة السفر منفردا قد تتاح مستقبلا من خلال العمل، كما أرسلوني إلى ليبيا..ولكن عليّ أن أعدّ نفسي لذلك.. إن كنت أريد زيارة إيران بالفعل، فلأتعلم الفارسية، وإن كنت أريد آسيا الوسطى، فعليّ بالروسية،حتى ترتفع أسهمي في الترشحيات.

فكرت في ذلك، ثم سرعان ما تحمست لشيء آخر: أن أصدر كتابا! فكرت في كتاب مستوحى من العمل الصحفي، وفكرت في روايات وقصص قصيرة، ودار ببالي للحظة أن أكتب عملا ساخرا، لأساير الموجة العليا في سوق الكتب العربية.. ولكن لم أفعل شيئا في النهاية.

***

في بداية نوفمبر الماضي، ذهبت للحصول على اشتراك جديد في المترو.. وقفت في منفذ البيع، حتى التفتت إليّ الموظفة بردائها الأزرق.. ذلك اللون الذي أحبه.

لا أدري أبسبب الشتاء كانت محتشمة نسبيا أم لا..ولكنها جذبتني إليها، ولا أعرف كيف.

كان شعرها الأسود قصيرا نسبيا، وبشرتها ليست بالبياض المعتاد للفرنسيات.. هي بيضاء، لكنها ليست كالشقراوات. كانت أقرب لإيطاليّات الجنوب ربما.

ربما يكون السر هو ابتسامتها.. قليلون هم في هذا العالم من يحسنون رسم تعبير مريح بالشفتين.. كانت هي منهم.

كانت هذه هي المرة الأولى، التي أشعر فيها بانجذاب نحو واحدة من الأوروبيات.. لم يكن انجذابا جنسيا، ولكنه كان شعورا بالارتياح، والرغبة في إطالة الحديث الضيق بأية وسيلة.

استدعيت الحيلة شديدة البدائية:

– معذرة.. هل لك قريبة تدعى لويز لوبلان؟

– (مبتسمة كعادتها) لا..

– إنها تشبهك للغاية.. ظننتك هي في البداية.. آسف لذلك آنسة...؟

ابتسمت وهي تعطيني الاشتراك، بينما قالت بلهجة اعتيادية "فوستين".

في التراث الكنسي، يقال إن القديسة فوستين هي رسولة الرحمة الإلهية.. يا له من اسم على مسمى.. هكذا فكرت.

في اليوم التالي، مررت ببطء غير معتاد من أمام منفذ بيع التذاكر.. ورفعت يدي بالتحية، بينما ظللت سائرا وأنا أقول "صباح الخيرة آنسة فوستين".

ردت بابتسامتها المعتادة، وبدت وكأنها تذكرتني، فقالت "صباح الخير سيدي".

مضيت إلى عربة القطار، وطيلة الطريق وأنا أفكر أين كانت فوستين كل هذه الفترة، التي قضيتها في باريس.. لم أرها من قبل، رغم مروري من نفس محطة المترو كل يوم، في الطريق إلى العمل. لعلها نقُلت حديثا، أو تم تعيينها للتو.. لا أعرف.

ظللت أياما ألقي السلام على فوستين، وترد هي بذات الابتسامة، وتسيطر صورتها على تفكيري طيلة الطريق،حتى جاءت تلك الظهيرة،حين كنت أتسكع في إحدى الحدائق القريبة من محطة المترو، فوجدتها برفقة شاب، يبدو وأنه على علاقة بها.

شعرت بالارتياح لرؤيتها في هذا المشهد.. ربما كنت أخشى الحب مرة أخرى، فسررت بمعرفتي أن الباب مغلق بذاته، دون حاجة لأية مغامرة من جانبي..ومع ذلك لم أتوقف عن تحية فوستين في كل يوم.

لاحظت خلال فترة اهتمامي بفوستين أن المساحة التي تشغلها إيمان تضاءلت، وانزوت تدريجيا في ركن قصيّ، حتى كنت أحيانا لا أفطن إلى وجودها.. ولكن لم تمض سوى أيام قليلة، بعد مشهد الحديقة، حتى بدأت إيمان في التقدم مرة أخرى، في حين تراجعت فوستين.. لم يكن تقدما كبيرا بمعنى استعادة للمكانة السابقة.. ولكنه كان على ذلك الطريق فحسب.

***

ارتفعت وتيرة الأحداث في مصر مع اقتراب الانتخابات التشريعية، وكان لي رأي لم يكن يرضي الغالبية، فاتُهمت

بالتخاذل، وحذفني بعض الأصدقاء من قوائم التواصل على الشبكات الاجتماعية.

كنت أقول لزوجتي "نحن في عصر البطولات المجانية.. يكفي أن ترفع صوتك، وتستعرض مهاراتك في السباب، حتى تكون بطلا.. ولا يهم تاريخك قبل ذلك".

مع كل حدث من تلك الأحداث الدامية، كنت أعرف من خلال الإنترنت أن شخصا ما كسب بطولة مجانية. أذكر زميلا سابقا، مقيما بدولة غربية، قد صار "بطلا" لأنه طاف بالعلم حول مبنى السفارة المصرية في مهجره، ولعل من هللوا له، نسوا أنه كان على علاقة بالأجهزة الأمنية في الجامعة وخارجها وقت الدراسة.. نسوا أنه لم يخرج في مظاهرة، ولو على سبيل التجربة.

اتصلت بمحسن عبر الهاتف، فوجدته على علم بذلك البطل الجديد.. قلت له "أتدري؟ أشعر أن تاريخنا يُسرَق!".

قد تبدو هذه العبارة للوهلة الأولى شديدة المبالغة، ولكنها واقع. لم يكن "تاريخي" أو تاريخ محسن ذا قيمة كبيرة، ولكن الأكيد أننا سرنا ضد التيار، وقتما كان جارفا. لم ننتظر بطولة، فأي منا لم يستغل ماضيه المعارض في الترويج لذاته بعد الثورة.. ولكن يصعُب علينا رؤية البطولات المجانية، تُوزع كمطويات الدعاية!

على عكس غالبية المصريين المغتربين، كنت أتابع الأحداث وأنا لا أريد الذهاب إلى الوطن.. خشيت أن يتم تكليفي بالعمل كموفد لتغطية الانتخابات، فأعصابي لم تكن لتحتمل التواجد في تلك الأجواء.

كنت أخشى أن يُطلب مني إجراء حوار مع ذلك الصحفي المعروف، الذي تقاضى عشرات الآلاف من الجنيهات شهريا، وقدم كثيرا من البرامج التلفزيونية في عصر ما قبل الثورة، ثم صار بعدها حَكَما ورمزا.

رغبت حقا في اعتزال السياسة! أنا لست سياسيا بحال.. ولكن عملي الصحفي مرتبط بها بشدة. تبدو دوما الشئون الخارجية ذات جاذبية، إن كان الحديث عن الرئيس الأمريكي المقبل، وأزمة البطالة في أوروبا، وتجارب كوريا الشمالية النووية، والصراع الأزلي بين الهند وباكستان.. وكل ذلك. ولكنها تكون قاتمة للغاية، حين تتصدر أخبار بلدك نشرات الأخبار، ويكثر حضور مواطنيك كضيوف على الشاشات، وتصير دوما مطالبا بشرح موقفك وتبريره،ودرء الاتهامات المسبقة،واحتمال السباب والصوت العالي.

***

"*أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا*"..استفهام قرآني إجابته "بلى".. ولكن ثمة قول آخر كنت أجده لي أقرب:

" حَتّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ". هذا الكون الفسيح يبدو ضيقا لأبعد الحدود أحيانا كثيرة.. وأضيق منه تكون النفس.

أنا مؤمن بالروح.. لا من حيث النظرية، ولكن من واقع الشعور. فحين تشعر بجسدك يضيق عليك، وكأنه زنزانة تغلّفك أينما ذهبت، فهذا دليل على وجود طائر حبيس بداخلك، يريد أن يبسط جناحيه، ويملأ رئتيه بالهواء.

أشتاق كثيرا إلى تلك البقعة، التي استلقيت فيها على العشب بسافوا العليا. ألا يكون الأفضل أن أحيا العمر هناك في كوخ صغير، في مواجهة هذه الطبيعة الساحرة، دون تلفاز أو إنترنت؟ هي أحلام مستحيلة بحكم الواقع والمسئولية. فات قطار الرهبنة!

لن أترك كل شيء وأذهب للجبال.. ولن أعتزل صداع العمل وأعود إلى بلدي، لأفتتح مخبزا آليا، أنعم برائحة منتجاته.. سأبقى.. سأبقى!

لم يعد يتملكني الحنين إلى أشياء شتى، كما كنت قبل شهور.. تتدافع أمامي الصور ومعها المشاعر.. فقط أشتاق أحيانا إلى دفء أجواء الجيزة.. وجفاف حلقي من الهتاف في مظاهرة.. ورؤية انعكاسي في عينيّ إيمان، وابتسامتها الشبيهة بـ"زيزي" خطيبة "بطوط"!

أذكر أحلامي المتفائلة المبهمة.. أن أكون صحفيا كبيرا، يقرأ الجميع ما يكتب، ويشارك في صناعة تغيير حقيقي للأفضل.. أذكر وقتي في كليوباترا.. أذكر حين أثرت إعجاب زوجتي بتنظيري الفارغ.. أذكر ابتسامة فوستين الوديعة.. وأراها من حين إلى آخر.

منذ شهور، أتسكع في شوارع باريس بعد العمل، وأصطحب زوجتي وفيروز في جولات متنوعة، خلال عطلتي الأسبوعية.. أحاول ملامسة الطبيعة، والابتعاد عن الضجة، وأستمع كثيرا لأغنية **Let it be** للبيتلز.

أتابع الأحداث رغما عني، وأنتظر العطلة السنوية لزيارة مصر، وربما تلبية دعوة مجتبى.. هناك أكثر من سيناريو مطروح، ولا أملك سوى الرضا والاستسلام.

هو استسلام يحمل معنى الاستمتاع.. كذلك الشعور الذي يراودك في بدايات النوم، بعد برهة من القلق.. حينها تشعر بالاسترخاء، وتعرف أنك في الطريق للاستمتاع بالفراش والأحلام والاستلقاء وعمل اللا شيء.. بكلمة أكثر إيجازا أقول: الشعور بالراحة.

مرت شهور وأنا مستسلم، وتبدو النتائج مبهرة.. ذكرياتي بسمات.. وللمرة الأولى منذ وصولي، أشعر أخيرا بالسكون في باريس.

هو سكون شعوري، رغم الانتقالات المتتالية من الحماسة إلى الملل.. الأمر أشبه برسم الموجات، كما درسنا في المرحلة الإعدادية. هناك قمم، وهناك قيعان، وفي النهاية لكل منها مدى لا يتجاوزه، بحيث يمكنك تطويق أقصى حركة لأعلى، وكذلك لأسفل.

هل لي بعد كل تلك اليقظة أن أغفو؟ إلى ذلك كنت أطمئن.

***

عملي يبدأ في العاشرة صباحا، حيث تكون الساعة الثامنة بالتوقيت السائد في البلاد العربية. ذات مرة، نزلت من المترل مبكرا، في نحو الثامنة، وقررت الترجل قليلا في وسط باريس، حيث نزلت في محطة تبعد بعض الشيء عن مقر العمل.

عبرت جسرا فوق السين، حتى ووصلت عند مدخل متحف اللوفر، أتابع السائحين دون هدف محدد. كان الجو لم يتخلص بعد من برودة الشتاء، رغم حلول شهر مارس.. لم أعرف لم تحديدا جئت إلى اللوفر.. ربما لتذكر أول أيامي في باريس، حين جئت متشوقا لرؤية الجيوكاندا، وبعض المومياوات والآثار الواردة من أنحاء شتى بالعالم.

تقدمت حتى الهرم الزجاجي، ووقفت قليلا أمام نافورة أفكر..."ماذا جاء بي إلى هنا في هذه الساعة؟".. لم أعثر على

إجابة، ولكن شعرت بهدوء نفسي غير مبرر، مع تسلل خيوط الشمس الرفيعة.

ظللت شاردا لفترة، دون هدف واضح. وحين اقتربت الساعة من التاسعة، قررت الرحيل، والاستمرار في الترجل حتى مقر العمل.

للصدفة قوانين مجهولة، ولكنها قائمة. هل من ورائها حكمة؟ لا أدري! لم أفكر في ذلك حين أبصرت وجها مألوفا يمر بجواري.

عدلت من مساري، ويممت وجهي شطر الهرم الزجاجي مرة أخرى، وحاولت التحقق.. تبا لتلك المعاطف، التي نرتديها نحن أبناء الشرق، في هذه الدول الباردة! إنها تجعل الناس نماذجا متكررة كبيادق الشطرنج، لا تعرف التفريق بينها إلا بموقعها.

كانت فتاة في نفس جسمها تقريبا، تتحدث بشيء من الحماس، بينما هي سائرة مع ذلك الفتى.. التركي! هنا انساب بين يدي خط الاستنتاجات.. إنها إيمان في صدفة أخرى.. وأين! ومتى! يا لها من تعقيدات.

توقفت مكاني، بعدما تأكدت من هويتها، تركتها تسير أمامي برفقة حاقان، وأنا أردد في ذهني شيئا واحدا.. "الصدفة لا تحمل دوما دلالات".

شعرت ببعض الهبوط في الدم، فأخرجت شوكولاتة من حقيبة الظهر، وجلست قليلا على حافة النافورة، أتناولها في هدوء، محاولا صرف نظري إلى أي شيء آخر، وإقناع نفسي بأنني لن أندم لعدم تحية إيمان وزوجها.

للحظة فكرت أن مكان العمل ليس بهذا البعد عن المتحف، فلا بأس من إضاعة بعض الوقت، ولأتحرك في التاسعة والنصف.. حينها سأصل في موعدي، أو بتأخير محدود ربما.

أخرجت كتابا من الحقيبة، كنت قد بدأته في وقت سابق.. كان بعنوان "مهزلة العقل البشري" للمفكر العراقي الراحل علي الوردي.

لم أكد أُتم فقرة من إحدى الصفحات، حتى فوجئت بمن يقاطعني بعبارة لم أتبينها إلا بعد التفكير فيها لثانيتين أو ثلاث.. "السلام عليكم".

جاءت بصوت رجولي غريب، يؤكد أن صاحبه ليس عربيا. رفعت رأسي عن الكتاب، فوجدت حاقان مبتسما.

رددت السلام.. فلم يلتفت لي، ونظر إلى الخلف صائحا بالألمانية.. **“Iman, jemand spricht Arabisch”**

لم أفهم الجملة كاملة وقتها، ولكن أدركت أنه ينادي إيمان، ويخبرها بأن هناك من يتحدث العربية.

قمت من حافة النافورة، ولا أدري ماذا أفعل.. جاءت إيمان وهي لا تنظر إلينا.. فقط تطوي خريطة السائحين، وهي في طريقها لرفع عينيها إليّ.

في تلك اللحظات،تجمعت أمامي الصورة كاملة.. هما يحتاجان إلى المساعدة، ولا يعرفان الفرنسية. ولكن كيف عرف حاقان أنني أعرف العربية، لغة زوجته؟بالتأكيد من رسم الحروف في عنوان الكتاب،الذي لا أدري لماذا قررت أن أواصل القراءة منه!

هل تبتلعني الأرض؟ لم أعرف كيف ستكون ردة فعل إيمان.. فكرت في ادعاء أنني شخص آخر..فكرت في القفز في النافورة.. فكرت في.. ولكنها نظرت إليّ.

لمحت في عينيها عصبية شديدة،بمجرد أن رأتني..رفعتُ حاجبيّ في محاولة للتعبير عن الجهل المطبق، وهززت رأسي كأني أطلب النجدة من حاقان.. الذي قال لها شيئا بالألمانية، لم أستطع تخمين معناه.

لا أعرف أهي صدفة أخرى،التي دفعتني إلى أخذ زمام المبادرة أم لا..

وجهت كلامي مباشرة إلى إيمان:

– سيدتي.. معذرة ولكن هل اسمُك إيمان؟

– ...

- (مبتسما) أنا (...) زميل دراستك.. ألا تذكرين؟

لم أنتظر رد فعلِها، وتوجهت مباشرة بألمانية شديدة الركاكة نحو حاقان..

- أنا صديق لإيمان.. هل تتحدث الإنجليزية؟

أجاب بثقة، وكأنه تنفس الصعداء..

- نعم.. ولكن فقدت الأمل أن أجد من يتحدثها خارج المقاهي والمطاعم هنا.

- لا عليك.. حسنا حاولت إخبارك بالألمانية أنني صديق قديم لإيمان.. لقد تزاملنا فترة الدراسة، ولم أرها منذ فترة طويلة.. قبل أي شيء، دعني أبارك لكما الزواج.

- (مبتسما) أحقا؟ أشكرك للغاية.. نحن هنا لمدة أسبوع. وصلنا مساء الأمس.. كنا نرغب في زيارة المتحف والمعالم الشهيرة.. يبدو أنك ستساعدنا.

- بكل سعادة.. علي أن أتعافى فقط من صدمة الصدفة.. في مثل هذا الشهر، قبل عام، صادفت صديقا آخر في ليبيا!

اقتحمت إيمان الحديث، وسألتني:

- أما زلت تعمل هنا؟

- نعم.. لم أتحول لبيع الهدايا التذكارية حول المتحف بعد.

– كنا نريد أن نفهم هذه الخريطة.. أين الحي اللاتيني؟

– هنا.. خلف ميدان سان ميشيل.

ضحك حاقان وتساءل:

– ولم لا يكتبون الحي اللاتيني مباشرة؟

– ربما لتكتشفه بنفسك، وتحصل على جائزة.. لا أدري.. دوما هناك سلبيات.

– (ضاحكا) ربما.. ألا ترافقنا في جولة المتحف؟

– للأسف وقتي لا يسمح.. عليّ الذهاب إلى العمل.. لكن لا تتردد إذا احتجت مرشدا سياحيا مجانيا.

ناولته ورقة، كتبت عليها اسمي ورقم هاتفي، وودعتهما وانصرفت.

***

قضيت أغلب الوقت في المكتب وطريق العودة أفكر.. ماذا يجول برأس إيمان الآن؟ أغلب الظن أنها تفكر في كوني ألاحقها. ومهما قلت إن تواجدي غير المبرر في ذلك الموقع السياحي صباحا، كان محض مصادفة، فإنها لن تصدق.. أنا نفسي لا أصدّق.

ترى هل يعرفني حاقان؟ هل أخبرته عن قصة الحب السابقة تلك؟ لا أدري حقا، ولا أعرف كيف أتصرف.

بينما تمددت في عربة المترو، أثناء العودة، تخيلت أنني أمام مسألة معضلة في المنطق.. ما الحل؟ تخيلتني أقلب الكتاب، وأنظر إلى صفحة "الإجابات النموذجية".. ماذا علني أجد؟

بعد فترة من التركيز، قلت لنفسي "حاقان معه رقم هاتفي.. إن اتصل بي، فهذا يعني أن إيمان لم تبد انزعاجا كبيرا لوجودي.. وإن لم يفعل، فلا ضرر مهما كان الحديث بينهما".

وجدت راحة في هذا الحل: السلبية. ولكن حل المسألة لا يعني بالضرورة انتهاء التأمل في معطياتها وكيفية تكوينها.

ما كل هذه الصدف المعقدة؟

لماذا في هذا اليوم بالذات قررتُ الترجل صباحا، والمرور بمتحف اللوفر، الذي يزوره الملايين؟ ولماذا تتصادف تلك اللحظات مع زيارة سياحية لإيمان وزوجها؟ ولماذا ينتبه حاقان للحروف العربية على غلاف الكتاب، فيربط بين هذه اللغة ولسان زوجته؟ لماذا لم يحسبها الفارسية مثلا؟

إن كل هذه المصادفات، إذا أضيفت للقائي بإيمان خلال زيارتها القاهرة منذ نحو عامين، لا تبدو عبثية أبدا.. ولكن قلبي وعقلي معا يقولان إنه لا معنى للمصادفات، إن لم تكن مصحوبة بفكرة واضحة عما ينبغي عمله عند وقوعها.. هي تماما كالأحلام.. ما يحتاج منها إلى تفسيرات وترجيحات يبدو عبثيا، بينما الواضح منها هو ما قد أعيره انتباها.

عرفت الهدوء في الأشهر السابقة لهذه المصادفة.. ولعب ظهور فوستين دورا في تهدئة وهج إيمان القادم من بعيد.. ولكن ماذا الآن؟

في اليوم التالي، كنت منهمكا في صياغة ملف خاص عن سوريا بعد عام من الثورة.. وفجأة، رن هاتفي معلنا عن مكالمة من رقم غير مسجل.

أجبت، فكان صوتًا لم آلفه يسألني بالإنجليزية:

– هل هذا الأسطى؟

– نعم..

– (ضاحكا).. حاقان يحدثك.. سعدت كثيرا باختيارك كُنية تركية.

– أها.. أهلا حاقان! لم أختر أنا كنيتي بل أطلقوها عليّ.. إنها قصة قديمة.

– أعرفها.. أعرفها.. هل يمكنك مقابلتنا هذا المساء؟

– لم لا؟ أين أنتما؟

– أمام كنيسة نوتردام.

– حسنا.. الساعة الآن السادسة.. هل نلتقي في السابعة؟

- ممتاز.. سنتجول قليلا، ونعود في الموعد أمام الكنيسة.. هذا رقمي.

أنهيت المكالمة، وانتزعت التركيز في من أعماق رأسي، لأكمل الصياغة.

جاء موعد انصرافي، فهاتفت زوجتي، وأخبرتها بأنني سأتأخر قليلا لمقابلة صديق، كي لا تقلق.

ركبت المترو، وتوجهت إلى تلك الجزيرة وسط مياه السين. قضيت الطريق أستدعي الأفكار، التي طردتها مؤقتا أثناء الدقائق الأخيرة من العمل.

لماذا يريد مقابلتي؟ لم يتحدث بصيغة المفرد.. هذا يعني أن إيمان ستكون حاضرة. بالتأكيد أخبرته هي عن كُنيتي، بل وحتى قصة تسميتي بها.. لا أشعر بالارتياح تجاه تلقائيته الشديدة تلك.

وصلت في الموعد في الساحة المواجهة للكنيسة، وبينما كنت أحاول الاتصال بحاقان، وجدته ينادي عليّ بكنيتي مرة أخرى.

توجهت إليه، وتبادلنا التحيات.. دعوتهما للعشاء، فأكدا أنهما فرغا من الطعام للتو، فتقلصت خياراتي.

للحظة، لاحت مني نظرة إلى عين إيمان، فبدت وكأنها تترقب رد فعلي، أو تستكشف ما إذا كنت قلقا أم لا.. كانت تعلم أن

علامات الاستفهام تتزاحم في رأسي، ولكن حاولت أن أبدو غير مكترث بالمرة.

تذكرت الأمين، فلُذتُ إليه كفريق يلتمس لعب مباراة بين أنصاره.

– اسمعا.. أترغبان في تناول القهوة بمقهاي المفضل؟ إنه قريب من هنا.

رحّبَت إيمان بالاقتراح، بداعي حاجتها الدائمة للمنبهات، بينما بدا الأمر مقبولا بالنسبة لحاقان، فاقتدتهما عبر الشوارع الضيقة للحي اللاتيني، حتى بلغنا المقهى. اخترنا طاولة، وجلست في مواجهتهما، ثم أشرت للأمين كي يعد فنجانا من القهوة لإيمان، وكوبين من الكاكاو لي ولزوجها، الذي أشعل لفافة تبغ.

اندهشت للغاية كون حاقان يدخن.. فإيمان كانت دوما تبدي امتعاضا كبيرا من الدخان، وكثيرا ما كانت تدخل في نقاش حاد مع زملائنا من المدخنين أيام الدراسة، محاولة إقناعهم بالأضرار الصحية وما إلى ذلك. تركت اندهاشي، وقمت لآخذ الأكواب من الأمين، لأضعها على الطاولة.

شكرني حاقان وبدأ بالكلام مباشرة..

– كنت أريد أن أسألك شيئا تملكه أنت فقط.

– ....

- لعلك تعرف أني زميل مهنة، ولكن أعمل بالصحافة البيئية.. ومجيئي إلى باريس لم يكن من وازع السياحة فقط، بل مرتبط بحضوري لمؤتمر حول المجال، سألقي خلاله محاضرة.

- عظيم.. عظيم.

- الشبكة الإخبارية، التي تعمل لحسابها، هي الجهة المنظمة للحدث.. وأشك في أن صحفيا إسرائيليا سيلقي كلمة قبلي أو بعدي مباشرة.. لا أريد مشاطرته المنصة أبدا.

- مهلا.. ألم يصلك جدول أعمال؟

- لا.. وهذه السرية تؤرقني.. إنها أول مرة أتلقى فيها هذه الدعوة.. وذلك الصحفي حاضَر في المؤتمر ذاته العام الماضي.. ويبقى حضوره واردًا هذا العام.

- اعذرني إن أزعجك السؤال.. ولكن موقف كموقفك أنت يصدر عادة من العرب.. وأقول بعضهم لا كلهم حتى.. هل توضح لي أسباب رفضك التواجد مع ذلك الرجل؟

- صحيح أنا مولود في ألمانيا، ونشأت هناك، ولم أذهب إلى تركيا إلا في زيارات؛ ولكن هي بلدي وأحمل جنسيتها.. ولا يمكنني أن أغفر ما حدث منذ نحو عامين.

- تعني أسطول الحرية؟

- بالتأكيد.

- ولكن اسمح لي.. العلاقات بين تركيا وإسرائيل لا تزال قائمة.. ألا يبدو موقفك مبالغا فيه؟

- أسئلتك تبدو غريبة، مقارنة بما حكته لي إيمان عنك.. ولكن دعني أخبرك أن الحكومات حرة في مواقفها.. فقط أفعل ما بيدي مع قاتلي ابن عمي في تلك القرصنة.

- اعذرني.. هذه دردشة ليست أكثر أو أقل. فهمت كيف يمكنني أن أساعدك.. سأحاول أن أعرف ما إذا كان ذلك الصحفي حاضرا في المؤتمر أم لا، وسأوافيك بالنتيجة.. فقط أخبرني باسمه.

- إيلي جيرشون.

دونت الاسم في مذكرتي، ووعدته بموافاته بالأخبار غدا، قبل المؤتمر، الذي سيعقد في المساء، والذي أصر على دعوتي لحضوره، فقبلت.

استأذنتُ إيمان وزوجها في الذهاب إلى دورة المياه.. وحين عُدت، همست في أذن الأمين قائلا "تابع تلك المرأة" في إشارة إلى إيمان.

ما إن عُدتُ إلى الطاولة، حتى سألني حاقان عن دورة المياه، فوصفتها له، فقام فورا. وجدتني جالسا مع إيمان وحدنا! لو كان حاقان أراد دورة المياه قبل أن أسبقه إليها، لرافقته إلى هناك؛ ولكن لا مفر الآن من جلوسي في مواجهة زوجته.

جلست صامتا، محاولا اصطناع الانشغال بشيء ما في مفكرتي.. ثم قلت لها، كي أذيب قليلا من الحاجز الثلجي الذي خلته قائما:

- ألا تفتقدين الحديث بالعربية؟

- ربما!

لم أبدِ اهتماما بما قالت، وقمت حتى البار، فنقدت الأمين الحساب، بينما كان حاقان عائدا إلى الطاولة.

قررا الرحيل، فودعتهما، ثم عدت إلى الأمين لبعض الثرثرة.

- دعني أخمن!! أنت تحب هذه المرأة؟

- كنت.

- اشهد لي أولا.. لدي حاسة سادسة.

- بالطبع.. أنت ثعلب.. ولكن هل الأمر واضح لهذه الدرجة؟

- ليس بالضرورة.. ينبغي أن يكون هناك من يعرفك كي يصدر حكما كهذا.. فقط لا تقل لي إنها التي كنت تحبها في بلدك.

- بل هي.

- ولم جاءت إلى هنا؟ تبدو متزوجة؟

- هذه قصة الصدفة المليارية إن شئت أن تقول.. ألقاك لاحقا!

***

عدت إلى المترل في ذلك المساء.. كنت قد قصصت على زوجتي صدفة لقائي بإيمان، وأخبرتها عن زوجها، الذي يصلح لبطولة أحد المسلسلات التركية الطويلة، ثم أخبرتها عن لقاء المقهى الأخير، فشجعتني على مساعدة حاقان، وتلبية دعوته لحضور محاضرته إن كان سيلقيها.

في اليوم التالي مباشرة، صعدت إلى الطابق العلوي، حيث قسم البيئة، وسألت عن أسماء المحاضرين في المؤتمر المرتقب، بحجة رغبتي في كتابة تقرير عن الحضور العربي في مجال الصحافة البيئية.

مرر لي أحد الزملاء ورقة، بها أسماء المدعوين.. كانوا سبعة أشخاص، برز من بينهم أمام عيني "حاقان أصلان" وأمامه بين قوسين "ألمانيا".

مررت عيني مرتين على الأسماء الباقية، لم ألحظ وجود إيلي جيرشون مطلقا.. فقط لفت نظري وجود صحفي لبناني، اسمه جوزيف أبو سعيد، فتظاهرت، وكأني قد وجدت ضالتي، وشكرت زميلي، وسارعت بالاتصال بحاقان لأطمئنه.

في المساء، توجهت إلى مقر عقد المؤتمر، بأحد مراكز الحفاظ على البيئة. دلفت عبر ممر طويل إلى القاعة، متجاوزا لافتات حول التغير المناخي والاحتباس الحراري والتصحر والأوزون وما إلى ذلك، حتى اخترت مقعدا بعيدا شيئا ما عن الصف الأمامي.

تذكرت وأنا أختار مقعدي أيام الثانوية العامة، حين كنا نتعارك في بداية الدراسة أينا يجلس في مؤخرة الفصل، بعيدا عن عين المعلم.. أذكر زميلا قال لي ذات مرة "أحب الصف الأخير كي أكون كاشفا للفصل كله!".. ولا أدري ماذا كان يعني بـ"كشف الفصل".. هو لا يختار مقعدا في السيرك، من المفترض.

وسط ذكريات الماضي، جاء حاقان وحياني، وبرفقته إيمان، التي قال لها "لتجلسي هنا بعيدا عن الصف الأول.. أعلم أن الموضوع برمته ليس في دائرة اهتمامك.. وقد يكون صديقك كذلك غير مهتم".

ودعنا حاقان باسما، متوجها إلى منصة المحاضرين، حتى يستمع إلى من يسبقه، ثم ينفرد بإلقاء كلمته من على منصة أخرى، في زاوية من المسرح.

لم أفهم هذا الرجل حقا.. هل كان يتعامل بعفوية شديدة، أم أنه مطمئن لي، أم أنه يريد أن يتحداني بطريقة ما؟ أقنعت نفسي

بالاحتمال الأول -على سذاجته- واسترخيت في جلستي على المقعد المجاور لإيمان.

حاولت استدعاء النعاس، ولكن عجزت، فاكتفيت بالتحديق في سقف القاعة، بينما بدأ المحاضرون في الحديث.

"تبدو منهكا".

قالتها إيمان قاطعة الصمت، نظرت نحوها وأنا أعدل من نظارتي، فشاهدت انعكاسي في عينيها. كانت تضع عدستين زرقاوتي اللون.

توقفت لحظة وقلت:

– بعض الشيء.

– يمكنك الرحيل إن أردت.

– ....

عدّلت من حجابها بعض الشيء.. كنت أعلم أن هذه الحركة تدل على شيء من الارتباك لديها..ربما شعرت بأنها أحرجتني، فأردت أن أزيل الشكوك، فقلت..

– آسف على وجودي إن كان يزعجك.. بإمكاني الرحيل فعلا.

– أنت تتبعني.

– أنا!

– نعم.. منذ لقائنا الأخير في مصر.

– اعتقدتُ أنها مصادفات.

– يا سلام!

– اسمعي.. لو أردتِ جدالا، فلن تنتهي مني بسهولة.. غريب أن أسعى لتتبعك، فلا أقابلك في ألمانيا حيث تقيمين، بل تأتين أنت إلى جريدة كنت أعمل فيها بشكل مؤقت في مصر، ثم تزورين باريس بالذات.

– وماذا جاء بك إلى المتحف في ذلك الصباح؟

– حقيقة لا أدري! ولكن لو كنت أتتبعك حقا، لقمت لتحيتك منذ أن لاحظتك.. إن أردتِ نظرية المؤامرة، فلتوجهي الشكوك أيضا إلى زوجك.. هو وحده من بدأ الحديث معي.

بدت مكابرة.. فأضفت:

– على أية حال، لا أعتقد أن هذه المصادفات تدفع في اتجاه معين.. الوضع شديد التعقيد الآن، بحيث يحاصر الخيال.

– بالطبع هذه المصادفات لا تعني أي شيء!

– فقط أردتُ طمأنتَك من جانبي.

– لا تقلق.

كان حاقان قد صعد إلى المنصة، وبدأ حديثا مطولا، لم أفهم منه شيئا..فقط كنت أستمع إلى مصطلحات متفرقة: الانبعاثات.. الغازات..ثاني أكسيد الكربون..التغير المناخي..القطب الشمالي.. إلخ.

نظرت إلى إيمان، فوجدتها تعبث في هاتفها، وكأن الأمر لا يعنيها.. شجعني ذلك على إخراج هاتفي والسماعات، كي أستمع إلى بعض الأغنيات العربية.

كنت محلقا مع صوت فيروز، حين سألتني إيمان:

– ماذا تسمع؟

– فيروز.

– منذ فترة لم أستمع لها.

خلعت السماعات، وناولتها الهاتف، فبدت غير مترددة وهي تشرع في السماع.

تنبهت إلى أن الأغنية تلك قد تثير شكوكها مرة أخرى! ففي بداية الربيع دوما كنت أهديها "إذا نيسان دق الباب" وقت ارتباطنا.

خشيت أن تستعيد نبرة الشك مرة أخرى، فقاطعتها مشيرا إلى وجود أغان عربية كثيرة، إن أرادت أن أرسلها إليها.

وجدها بالفعل بدأت تتجول بين ملفات الموسيقى في الهاتف، فسلمت بأنها ستحيي نظرية المؤامرة، إذا جاءت في طريقها أغنية مثل **Truly Madly Deeply** لثنائي سافيدج جاردن، بكل ما تحمله من ذكريات.

وجدها تعيد لي الهاتف قائلة "ذوقك انحدر بشدة"، فنظرت إلى أي أغنية كانت تستمع، فاطمأن قلبي، حين أدركت أنها توقفت عند "الصبر الطيب" لجورج وسوف.

قلت لها:

– بل أنت نخبوية أكثر من اللازم.

– نخبوية؟!

– بالتأكيد! جورج – وإن لم يكن مصريا– فهو يحظى بشعبية كاسحة في بلادنا.. يكفي أن صوره تزين أغلب صالونات الحلاقة، وينافس بقوة في السيطرة على فئة السائقين.

– ما شاء الله!

– لا تعجبني هذه النبرة.. ولكن اسمي الأسطى.. أنا حِرَفي كما تعرفين، وهذا جانب من ذوقي.. بالتأكيد يختلف عن ذوقك، خاصة بعد أن حصلتي على الماجستير.. أعتقد أنك تميلين إلى الأوبرا الآن.

كانت المحاضرات قد انتهت، وحان وقت مشاهدة فيلم تسجيلي قصير، عن دور الصحافة في مكافحة التغير المناخي.

ما إن انطفأت أنوار القاعة، حتى سحبني النعاس ونال مني سريعا، فغفوت في سِنة جميلة، ثم تنبهت مع عودة الأضواء، لأجد حاقان بجواري، وقد عاد من المنصة ليشاهد الفيلم.

كان يحادث إيمان بالألمانية، فانتظرت حتى فرغا، وهنأته على أدائه، فشكرني بابتسامة تدل على أنه تأكد أنني لم أنتبه لشيء مما قال.

طلب مني أن أساعده في التعرف على الزميل اللبناني جوزيف أبو سعيد، الذي ألقى كلمته بالفرنسية، ولا يتحدث الإنجليزية! فكرّت سريعا، ثم قلت له "أعتقد أن الترجمة ستكون أفضل لو جاءت من إيمان.. ستنقل لك من العربية إلى الألمانية مباشرة".

بدا حاقان وكأنه قد فطن إلى حقيقة غائبة عنه، فتبسم وطلب من إيمان أن ترافقه لمخاطبة الرجل، فيما انتهزت الفرصة قبل أن ينتهي اللقاء، وسألته كم من الأيام تبقى له في باريس.

علمت أن أمامه وقتا كافيا كي أدعوه إلى تناول الغداء في عطلتي الأسبوعية، فقدمت العرضَ، فرحب دون الرجوع إلى إيمان. اتفقت معه على اللقاء بعد يومين، لاصطحابهما إلى منزلي المتطرف شيئا ما عن قلب المدينة، فشكرني، وتركته وانصرفت.

في طريق عودتي، كنت أسأل نفسي "ماذا فعلت؟" وفي الحقيقة لم أملك جوابا. هل أنجذب إلى إيمان كفراشة تلتصق بالضوء؛ رغم أنه قد يفضي إلى الموت؟ هل يتعامل حاقان معي بسذاجة، أم أنه يعرف من أكون، وقد أمِن جانبي حين اختبرني أثناء معرفتنا القصيرة؟

هل الصواب يُحتم عليّ أن أتراجع عن الدعوة، حتى أكون أكثر احتراما لزوجتي، وإن كانت لا تعلم أن إيمان هي حبيبة الماضي؟ أم هل تجاوزتُ الأمر بالفعل، وطويتُ صفحة الماضي، ولا مانع من التعامل باعتيادية؟

كنت قد وصلت إلى المترل، جالبا معي بعض الحلوى لفيروز. وضعتها في فراشها، حيث غلبها النعاس، فيما جلست أتناول العشاء مع زوجتي.

حكيت لها عن ملخص اليوم، وبأنني لم أفعل شيئا أثناء كلمة حاقان أو غيره، إلا أنني امتدحت شخصية الرجل، وقلت إنني أشعر بارتياح تجاهه.

– ما رأيك لو دعوهما إلى الغداء في عطلتي الأسبوعية؟

– لا مانع.. فقط أكّد لي حتى أكون مستعدة.

– سأهاتفك غدا من العمل لأخبرك.

اتصلتُ بزوجتي في اليوم التالي، لأؤكد الدعوة، وأوصيتها بأن تعد مائدة مصرية، دون أن تتوسع في إكرام الضيف كعادتها.

علمتني زوجتي بطريقة غير مقصودة ألا أدعو أحدا إلى منزلي إلا في أضيق الحدود.. ليس لأنها لا تُكرم الضيف، بل العكس تماما!

أتذكر حين دعوتُ زميلي السابق في الجريدة، شريف، إلى الغداء، وكيف ظلت زوجتي في المطبخ من الفجر حتى المغرب، حتى كادت أن تتعرض لإغماءة من فرط التعب، الذي استمر في صورة غسيل الأطباق بعد انتهاء اللقاء.

حتى حين كنت أدعو صديقا لتناول الشاي في الشرفة، كانت تبالغ في إكرامه بالمشروب تلو الآخر، وهو أمر لم يرق لي أبدا، ليس من باب البخل أو الاقتصاد، ولكن لأنني أحب أن يكون الطرف الآخر قادرا دوما على رد مجاملتي، حتى لا يستشعر باستعراض من جانبي، فأنا أيضا أكره أن أشعر بالإفراط في الكرم من جانب أي من معارفي.

ولكن لا أدري لم تغاضيت عن ذلك، وقررت دعوة إيمان وزوجها بمبادرة شخصية، لم أحسب عواقبها.. بل لم أفكر لحظة قبل التقدم بالدعوة.

***

مرت الساعات، وجاء الموعد المرتقب، هاتفتُ حاقان وأخبرته بأن يظل هو وزوجته بالفندق، حتى آتي لاصطحابهما بالسيارة.

لا أستخدم السيارة إلا في العطلات الأسبوعية، كالأوروبيين تماما. يمكن القول بأن زوجتي أكثر استخداما لها، حيث تذهب بفيروز يوميا إلى دار الحضانة، ثم تصطحبها في نهاية اليوم الدراسي، بعد أن تكون قد تبضعت، أو عادت للنوم بعض الوقت.

وصلت بالسيارة إلى قلب باريس في الصباح، حيث فندق حاقان وإيمان. نزلت، وسلمت عليهما، ثم ركب الرجل إلى جانبي، فيما جلست زوجته على الأريكة الخلفية.

أقود السيارة عادة بتركيز كبير، فقلما أنظر إلى من يجلس إلى جواري، كما لم أزل -بعد نحو سنتين في باريس- غير معتاد على الانتظام المروري.. فدائما أتوقع انحرافات من السائقين بجواري أو أخطاء غير واردة، كتلك التي تحدث في مصر بشكل معتاد.

كنت على وشك أن أسأل حاقان السؤال المعتاد حول أي الأندية يشجع في ألمانيا وتركيا.. ولكن قبل ان أشرع بالإجابة، بادرتني إيمان بالإنجليزية:

- هل لديك موسيقى شرقية؟

– لا أعرف حقيقة.. سأرى الأغاني المخزنة.. كلها اختيارات زوجتي، وبالتالي لن تصطدمي بطارق الشيخ مثلا.

بدأت أعبث في المسجل، حتى انطلق صوت عايدة الأيوبي "على بالي.. على بالي.. ابن بلدي على بالي".. قلت "يبدو أن زوجتي تعاني حنينا شديدا للوطن.. فهذه كلاسيكية المغتربين الأولى".

ضحك حاقان، بينما ترجمت له إيمان بعض الكلمات.

سألته فجأة:

– هل تشعر بالحنين؟

– إلى ماذا؟

– لا أعرف.. إلى الوطن.. ولا أدري في حالتك أيكون ألمانيا أم تركيا.

– مممم.. الموضوع ليس مطروحا بهذا الشكل.. أشعر فقط ببعض السعادة حين أزور أفراد العائلة في تركيا، وأدرك كم أن عائلتي كبيرة.. في ألمانيا أشعر بأنني في بيتي.

– أعني بالحنين ما هو أكبر من ذلك.. كالاستمتاع بأشياء معينة في مكان معين.. في مصر مثلا، لا بديل عن جو مباراة في المقهى، أو السير بجوار النيل ليلا، وحتى المعاناة لإنجاز بعض

الأوراق الرسمية.. كل ذلك له نكهة شديدة الخصوصية، أفتقدها كثيرا هنا.

- أفهمك.

- الأمر يبدو غير بعيد عن الماسوشية.. أن يأخذك الحنين إلى ما قد يُصنف تحت خانة المعاناة.. ولكن قد تكون هكذا مصر.

لم تشارك إيمان بأية كلمة في ذلك الحوار المقتضب، وإن كنت قد انتظرت منها تعليقا. ماذا يعني لها الحنين؟ نظرت إليها عبر المرآة، فوجدتها تراقب الحقول الخضراء المنسابة على جانب الطريق. فيم كانت تفكّر؟ لم أعرف، ولم أُرِد التخمين.. فقط استمعتُ لصوت عايدة، وهو ينتقل من أغنية إلى أخرى.. لم تكن هناك أغنية "صدفة" لحسن الحظ.

قالت لي فجأة "أنت تقود بشكل حذر للغاية"، اكتفيت بالرد "فعلا" بينما تخيلت ما كنت سأفعله، لو حدث هذا المشهد قبل سنوات.. ربما كنت سأنحرف فجأة بالسيارة إلى جانب طريق، وأعود مرة أخرى إلى الوسط، مستعرضا قدراتي.. أما الآن، فلا معنى لذلك.. لم أبهرها أو أفحمها؟ الأمر لا يستحق أي نوع من المخاطرة.

"ها قد وصلنا".. قلتها قاطعا عدة دقائق من الصمت، وأنا أهدئ السرعة، حتى أوقفت السيارة في مواجهة المترل مباشرة.

خرجت زوجتي لتحيتنا، بينما استترت خلفها فيروز، وهي مستحية من الغرباء كعادتها.

فضولي دفعني لتتبع نظرات إيمان لزوجتي، حين تبادلا التحية بالعناق المصري المعتاد.. ولكن لم ألحظ شيئا.. فقط أسدَلَت جفنيها بشيء من البطء، ورسمت ابتسامة صافية تظلل كلمات الترحاب الواردة إلى سمعها، ثم حملت فيروز وقبلتها، قائلة "ما شاء الله.. جميلة.. لا تشبه أباها".

كانت المائدة معدّة بالفعل، ويتوسطها إناء الملوخية، أشبه بخاتم النسر المصري المميز على الوثائق الرسمية.

بدأت إيمان تشرح لزوجها بألمانية خافتة مكونات بعض الأطباق، التي لا تختلف كثيرا –حسب ظني– عن المطبخ التركي، ولكن يبدو أنه كان بحاجة للمساعدة، نظرا لإقامته الدائمة في أوروبا.

تدخلت زوجتي فجأة، وسألت إيمان "ألم تعرفي زوجك بالمطبخ المصري من قبل؟ يبدو مندهشا من الملوخية!".

أردتُ رفع الحرج عن إيمان، فأجبت نيابة عنها، بأنهما حديثا الزواج، وأن الوقت ربما لم يتسع لهذا التبادل الثقافي.

كنت أعرف أن إيمان تهوى الطهي، ولكنها في الوقت نفسه لا تحب الملوخية.. كانت هذه إحدى نقاط الخلاف الطفولية بيننا..

كنت أسألها دوما ماذا ستفعل وأنا أحب هذا الطبق الأخضر، فترد بأنها ستعرف كيفية صناعته، لتقدم لي ما يكفيني، دون أن تشاركني.

انتبهت من تلك الذكرى، إلى واقع أن زوجتي أيضا لا تهوى الملوخية. كنت أنا فقط من يأكلها على المائدة، وانضم إليّ حاقان، بعدما استحسن مذاقها.

جلسنا لتناول الشاي في الشرفة، التي يمكن لأي شخص أن يقفز بسهولة منها إلى الأرض، دون أن يصاب بأذى.

كان الجو يحمل نسائمًا رقيقة دون برودة.. تحدثنا في أمور شتى، ولكن يبدو أن فيروز حازت على إعجاب حاقان وإيمان، فتفرغا لملاعبتها، مما دفع زوجتي إلى أن تتمنى لهما الإنجاب قريبا.

سألت إيمان عن تاريخ ميلاد فيروز، فأجابتها أمها بأنه السادس من مايو.. حينها تعجبّت وقالت "إنه برج الثور".

حبست رغبة شديدة في الضحك، فالسنوات تمر، والإنسان لا يتغير. تذكرت ولع إيمان بالأبراج، ورصد المفارقات بين أنثى الميزان ورجل الدلو، إلى آخر هذه الأمور، التي تبدو بالنسبة لي شديدة العبثية.

هنا تدخلت في الحديث، موجها كلامي إلى حاقان:

– هل تؤمن بالأبراج؟

– (ضاحكا) بالطبع لا! لكن إيمان تهتم كثيرا بهذه الأمور.. أنا ممتن للأبراج على أية حال، فلولاها لربما رفضت أن نرتبط.. ولكنها رأت أن شخصيتينا متوافقتان، تبعا لما يقوله الفلكيون.

– هذه فائدة! ولكن بالنسبة لي، فإن الأمر كله عبث محض!

هنا تدخلت إيمان:

– الرجال دوما ينظرون للأمر بسطحية.

– ربما.. ولكن زوجتي أيضا ليست من الرجال، ولا تهتم بالأبراج.

– الأمر ليس تنجيما أو قراءة حظك اليوم.. فقط يحدث أن مواليد بعض الأبراج يتفقون في صفات معينة.. لا علاقة للأمر بالتنبؤ بالمستقبل.

– صراحة نعم.. ولكن ضمنيا لا! فحين تقولين إن رجل الجوزاء، مثلا، يميل إلى الشجار، فهذا يعني أنك قد لا تحتملي عصبيته، وهذا تنبؤ مستتر بالمستقبل.. ولو فرضنا جدلا أن الأمر غير مرتبط بالمستقبل؛ فلم يشترك البعض في صفات ما، لمجرد أنهم مواليد نفس اليوم أو البرج الشمسي؟ هناك الأبراج الصينية، وهناك الأشهر القمرية.. أين نصيبها من ذلك الرصد؟

– لا أعرف كيف أعبر عما أريد قوله.. ولكن الأمر حقيقي، وبإمكانك رصده بالتجربة.

– (ضاحكا) ربما.. ربما! لم أفكر للحظة أن أقرأ عن تناسب برجي الميزان مع برج زوجتي الثور.. ولم أفكر أيضا في وجود تشابه بين زوجتي وفيروز، لمجرد انتسابهما لنفس البرج.

– (بشيء من نفاد الصبر) مواقفك لا تعبر بالضرورة عن الحقيقة.

لا أعرف كم مرة قبل ذلك اللقاء تناقشنا في مسألة الأبراج تلك.. أذكر نقاشات مختلفة حول أمور أخرى، كالسياسة والتاريخ والأدب.. حتى موقفي غير الودود من الفراعنة، كان دوما ما يحتل مكانة في أي جدال بيننا.. كانت تُستفز من قدرتيّ على النقاش، وتستمتع بها في ذات الوقت. بكل الزهو أقول إنني كنت أبهرها.

قطعت فيروز النقاش، آتية وهي تحمل حاسبي اللوحي.. تريد بلا شك اللعب، ولكنها لا تعرف من أين تبدأ.. تنبهت لوجود رسالة من صديقي محمد فاروق، الذي كان في وضعية متصل، ويسأل على حالي ليس أكثر.

كتبت له بسرعة:

– خمّن مع من أجلس الآن!

– ؟؟

– إيمان.

– إيمان؟

– نعم.

– الله يخرب بيتك! ماذا تفعل؟

– لا تقلق! زوجها وزوجتي هنا.. إنها الصدفة المليارية.

وعدته بحكاية التفاصيل لاحقا، بعد أن بدأت فيروز في إصدار صافرات الإنذار السابقة للبكاء، ففتحت لها لعبة، وتركتها تذهب بالحاسب بعيدا.

سألني حاقان عن تجربتي الأخيرة في ليبيا، فقلت له "كانت تجربة قاسية بعض الشيء، ولكن هكذا هو العمل".

تدخلت زوجتي في الحوار:

– المفارقة أنه لم يحضر الثورة في بلده.. بل في ليبيا!

– هل كنتِ في مصر وقت الثورة يا إيمان؟

– نعم.. كان لنا في الميدان أيام.

– ليتني كنت هناك..

– لا تقلقي.. ستحضرين الثورة القادمة.

انحرفت بالحديث بعيدا عن الوضع السياسي في مصر، كنت قد تشبعت بالنقاش، ولو كان عبر الإنترنت، وعدت إلى نقطة ليبيا، لأتشعب منها إلى تجارب السفر.

علمت أن إيمان أشبعت قدرا كبيرا من شغفها بالسفر. لأسباب علمية ومهنية وغير ذلك، زارت دولا عدة: جنوب أفريقيا والهند والنرويج والولايات المتحدة.. وتركيا بالطبع.. والآن فرنسا.

مضى بقية اليوم رتيبا.. مشاهدة ألبوم الصور وبعض التذكارات.. الحكايات المتبادلة عن غرائب الصحافة، ومتاعب الإقامة في أوروبا.. تجربة تركيب الشطاف، رغم عدم وجود تجهيزات معدَّة لذلك.. إلى آخر هذه الأمور الاعتيادية.

بعد تراجع الشمس، ودخول النهار منعطفه الأخير، استأذن الضيفان للرحيل، فتجهزت لإيصالهما حتى وسط المدينة.. مرة أخرى كنا في السيارة.. ومرة أخرى نفس الحديث والنكات.. ومرة أخرى كنت أمام طريق العودة بمفردي، بعد كلمات المجاملة والوداع.

***

كان الجو مشجعا للغاية، كي أُنزل زجاج النافذة المجاور لمقعدي، وأستمتع بالهواء.. فكرت ماذا بعد.. ها قد حضرت إيمان مرة أخرى إلى حيث أكون.. وها قد جادلتها فأكثرت جدالها، كعادتنا في الماضي.. ها هي وزوجتي تحت سقف واحد.. ها هي قد رأت ابنتي، ولعبت معها قليلا.. ثم ماذا؟ ثم ماذا؟ لا شيء على الإطلاق.

بدأت أشعر بملل، مخلوط بالقلق، فقررت اللجوء إلى الأغاني مرة أخرى.. أردت شيئا ينتشلني إلى عالم آخر، دون تسريع أو إبطاء لدقات القلب.. ماذا أختار؟ أنا في فرنسا، فلأختر أغنية فرنسية! وقع اختياري على أغنية **Les yeux au ciel** للويس جاريل.. حالتها مشابهة لي، وأنا أراقب بشائر الغروب أثناء عودتي.

طردت من ذهني فكرة أن إيمان قد تتصل بي. ماذا عساها تقول؟ لا شيء بالطبع.. أعتقد أن احترامها لحاقان، بل وكبرياءها قبل أي شيء يحول دون ذلك... ربما شعورها بالتعويض معه يساعدها على تحمل رؤيتي في حياتي الجديدة.. هي لم تعد تكرهني.. أو ربما لم تكرهني كي تتوقف عن ذلك الآن.. على الأقل، أشعر أن هذا الشعور لا يتملكها. ربما دفعها الفضول لتقبل فكرة الاقتراب مني الآن.. كل منا يرى حياة الآخر في غيابه.. لم تتساقط النجوم أو تجف الأنهار. ربما هذا يجعل كل منا أكثر رضا بحياته الحالية، دون تحسر كبير على ما ضاع في الماضي لسبب أو عدة أسباب.

الأغنية التالية كانت التغريبة لحمزة نمرة، معها مرت أمامي مشاهد عشوائية من اليوم، لا علاقة لها بفكرة الأغنية مطلقا.. تذكرت إيمان وهي تخلع معطفها، بعد أن اطمأنت للدفء داخل المنزل.. بدت وقد زاد وزنها أكثر من ذي قبل. كلنا نذبل ولو بعد حين، حتى أنا أعاني الآن من غياب الرشاقة، التي امتزت بها

لسنوات.. ربما لو كنت في مصر الآن للقبني الرفاق بـــ"المعلّم" لا "الأسطى".

تذكرت إيمان وهي تحادث زوجتي.. ربما كان المشهد في حاجة إلى فوستين، كي أعنونه بعبارة "نساء في حياتي".. ضحكتُ لذلك الخاطر.. فوجود الفرنسية كان عابرا للغاية، ولم يتجاوز تبادل تحيات الصباح.

صرفت النظر عن الإناث، وفكرت في الخطوات التالية.. سأطلب إيفادي إلى مصر، للمشاركة في تغطية انتخابات الرئاسة. إنها فرصة طيبة.. أريد أيضا إكمال إجراءات الإعفاء النهائي من أداء الخدمة العسكرية، حتى لا أضطر لاستخراج تصريح السفر كل مرة.. أنا في الثامنة والعشرين الآن.. ألمح العقد الرابع غير بعيد في الأفق.

لأن الظروف تسمح.. عزمت على اصطحاب زوجتي وفيروز، إذا تمت الموافقة على إيفادي، فذلك سيكون في النصف الثاني من مايو.. أريد أيضا أن أنتخب في بلدي، لا في سفارتها.

***

في صباح يوم جمعة، كنت قد نزلت إلى صالة وصول مطار القاهرة.. بالطبع لم تكن معي كل المعدات التي ذهبت بها إلى ليبيا.. فالأمر هذه المرة يختلف كليا، ولشبكتنا مكتب في القاهرة،

سأعمل تحت لوائه، إلى أن تنتهي المهمة.. ولكن حملت معي زوجتي وابنتي.

أثناء الرحلة، كنت أكتب بعض الأمور التي أريد إنجازها في مصر، وعلى رأسها استخراج شهادة الإعفاء من التجنيد. وبينما كنت أعبث على الورق، وجدت عيني زوجتي تتابعان قلمي، فلجأت للمعاكسة القديمة، وكتبت في وسط الصفحة بخط كبير واضح "أحبك".

ضحكَت، ومالت على كتفي قليلا، قبل أن تجذبها فيروز. مرت دقائق، وقالت لي "انظر من هناك!".. لم أجد شيئا مميزا، ولكنها كانت تشير إلى أحد الركاب.. سألتها:

– من؟

– لا أذكر الاسم، ولكنه مطرب معروف.

– طارق الشيخ؟؟؟

– لا أعرف كيف يبدو طارق الشيخ!

– هو لا ينتظر أن تعرفيه!

عجَزَت في النهاية عن تذكر اسم ذلك المطرب، وفقدت اهتمامي بمعرفة هويته. يمكنني القول بأن العمل في الصحافة يجعلك أقل شغفا برؤية المشاهير.. ليس لأن فرص مقابلتهم تزيد

بحكم المهنة، ولكن لأنك تكون أكثر عرضة لنقائصهم، وإدراكا لأهم بشر في النهاية.

كانت غرفتي وقت الدراسة الثانوية مرصعة بصور للاعبي الكرة المفضلين لدي.. ربما لو كان لدي الاختيار الآن، لاكتفيت بصورة لمحمد أبو تريكة مثلا، ولربما وضعت صورا لشخصيات لم أكن لأهتم بها في السابق، ولكن كتاباقم، التي اطلعت عليها لاحقا، ساهمت في تكويني إلى حد كبير.

لم أخبر أحدا بقدومي، حتى لا يتكبد أيهم عناء استقبالي في المطار.. ركبت سيارة أجرة، وانطلقت نحو المترل، حيث قاومت الإنهاك بعد الصعود بالحقائب، وذهبت لأداء الصلاة بمسجد الاستقامة بميدان الجيزة.

توقعت أن أستمع إلى خطبة عن ضرورة تحكيم شرع الله وما إلى ذلك، ولكن خاب أملي.. مرت عيناي بين جموع المصلين وهو جلوس، حتى أبصرت محمد فاروق بينهم.. نعم كنت أبحث عنه.

بمجرد انتهاء الصلاة، جئت من خلفه، وغطيت عينيه بكفيّ، متجاهلا نظرات بعض الرجال، ممن ساءهم مزاحي داخل المسجد.

لم يخمن أبدا من أنا، إلا من صوتي، فتعانقنا طويلا، رغم استمرار انزعاج بعض المحيطين، المبالغين في إظهار الاحترام لبيت الله.

لامني الصديق قليلا، لعدم إخباره مسبقا، كي يأتي لاستقبالي في المطار، فأخبرته بأنني وزوجتي لا نخبر أيا من عائلتي أو عائلتها أو حتى المعارف، منعا للتكليف.

ترجلنا حتى شارع الغرفة التجارية على الجهة المقابلة.. توجهت رأسا نحو شطائر الفول والطعمية، هي موجودة في باريس بلا شك.. ولكن أن تتناولها وسط ضجة مرور القاهرة الكبرى، يحمل مذاقا آخر.

جلسنا في موقف الحافلات، كما كنا نفعل قبل أكثر من عشر سنوات، وفي يد كل منا عبوة كولا.. كنت أعلم أنني سأحكي له عن الصدف المليارية الأخيرة، التي جمعتني بإيمان أمام زوجتي وزوجها، في تلك البلاد البعيدة.

انتظَر حتى فرغت من روايتي وقال:

- أنت مخطئ بلا شك. ما فائدة كل ما جرى؟ إن كانت الصدفة قد وقعت، فلم يكن هناك أي داع لاستثمارها كما فعلت.

- مخطئ نسبيا ومصح نسبيا.. في النهاية لا ضرر.. بل ربما تكون هناك فائدة.

- في صورة ماذا؟

- ربما يقيني التام بأن ما قد جرى قد جرى، وأن كلا منا الآن يرى الآخر في حياته، دون أن يعني ذلك كارثة كونية.

- ألم تدرك ذلك قبل الصدفة؟

- لا.. دعني أتفلسف قليلا.. هناك مسلمات لا ندركها إلا في لحظات ومواقف بعينها. مثلا حين كنت معك في المقابر - وآسف لتذكيرك- أدركت حينها أن الحياة فانية، ولا معنى للاستمرار.. هذه من المسلمات، ولكن احتجتُ لحظة التنوير تلك، إن جاز التعبير.

- أنت تعبث.

- ربما.. لكني لم أتغير.

- تغيرتَ بنسبة، لكن أنت أنت.

- لا تقلق.. لو قلت لي إنني تغيرت، فلن أنزعج.

- أعلم.. دوما كنت تنتقد منطق الفتاة، التي تقرر الخروج من ارتباط عاطفي، لأنها تشعر بأنها تتغير.. كنتَ دوما تقول إن التغير ليس سلبيا في حد ذاته، بل قد يكون للأفضل.

– أو قد يكون انتقالا لطور آخر، بحكم الطبيعة البشرية.. لا أفضل ولا أسوأ.

استمر الحديث حتى العصر، فودعت محمد، وعدت إلى المنزل سريعا، لأوصل زوجتي وابنتها إلى بيت أبيها، وأنتقل أنا إلى بيت أبي.. هناك انتظرتني الأحضان، ولم يتأخر عني النوم.

***

في صباح اليوم التالي، كان عليّ الانضمام إلى فريق مكتب القاهرة، ولكن ذهبت أولا لتقديم أوراق الإعفاء النهائي من الخدمة العسكرية، على أن أستلم الشهادة بعد ٢٤ ساعة فقط! غادرت منطقة التجنيد، دون التوقف طويلا أمام الذكريات، وتوجهت من فوري نحو وسط العاصمة، حيث مقر المكتب. علمت بأن خطة عملي قد تنحصر في إجراء حوارات تلفزيونية، قبل بدء التصويت، الذي سأقوم بتغطيته في بعض دوائر الجيزة.

لحسن الحظ، فإن النمط الإخباري البحت لشبكتنا، يجعلني لا أتجلى في المقابلات التلفزيونية، لأن الكاميرا تكون موجهة إلى الضيف فحسب، بينما يقل الاهتمام بالمحاوِر، حتى يكاد ينعدم، فلا يظهر إلا في لقطة أو اثنتين.

أقول لحسن الحظ، لأنني لا أحب أن أبدو وجها مألوفا، ولذلك اخترت الصحافة المكتوبة كوجهة للعمل، منذ أن

استبعدت فكرة الالتحاق بقسم الإذاعة والتلفزيون، بعد انتهاء السنة الأولى من الدراسة الجامعية.

جلست في المكتب، لوضع خطة الحوارات التلفزيونية. كنت بحاجة لإضافة بعض المصادر إلى قائمتي، خاصة من بعض الاتجاهات السلفية. اتصلت بمحسن، الذي فوجئ بوجودي، قبل أن يمرر لي أرقام الكثير من المتحدثين الرسميين، وأعضاء الهيئات العليا، ومجالس الشورى، وغير ذلك. شكرته كثيرا، ثم بدأت في الاتصالات.

بحلول العصر، كنت قد رتبت ثلاثة حوارات مع ضيوف من اتجاهات مختلفة، للحديث حول انتخابات الرئاسة. حددت مواعيد لتسجيلها في اليوم التالي مباشرة، على أن تذاع وفقا لما تراه إدارة الشبكة، قبل بدء التصويت.

في القاهرة، حتى ولو كنت تعمل لحساب جهة أجنبية، فإن كل شيء تظلله سحابة من التوتر. فدوما أنت متأخر، والضيف نادرا ما يلتزم بالموعد، والخبر الذي تنشره قد يُكذبه المصدر، حتى ولو كان مسجلا صوتيا.

من هنا يفضل أغلب العاملين بالصحافة في مصر عدم وضع خطة معينة، لأن الظروف تملي خطوات بعينها عند التنفيذ، قد تكون شديدة البعد عما يتمناه الصحفي قبل أن يبدأ بالعمل.

كنت قد قررت انتخاب أحد المرشحين بعينه، وتصادف أنه اختيار زوجتي أيضا، دون أن يحاول أي منا التأثير على الآخر..

بل كان اختيار نسبة غير قليلة من أصدقائي، ولكن فرصته في دخول جولة الإعادة كانت تبدو ضعيفة منذ البداية.

سألت نفسي.. لمن ستصوت إيمان؟ لم أسألها حين التقينا في باريس، بل لم أرغب في الخوض في السياسة وقتها.. ولكن علمي بشخصيتها يدفعني إلى التخمين.

صباح الأحد كان.. كنت في معسكر التجنيد، أسجد لله شكرا بالحصول على الإعفاء النهائي من أداء الخدمة العسكرية. لم أعد خاضعا لحكم العسكر، كما قال لي محسن لاحقا حين التقينا، واعتبرها بشرى خير.

قابلت فريق التصوير، قرب بيت أول الضيوف المستهدفين بمقابلاتنا، وبعد التسجيل، جاءتني مكالمة من المكتب. كان المدير يطلب مني مرافقة زميلة، تمثل الإصدار الناطق بالفرنسية من شبكتنا، إلى الهيئة العامة للاستعلامات، للحصول على البطاقة التي تخول لها العمل الصحفي في مصر.. أخبرني بأن الأمر لن يتعدى بعض الدقائق، كون إدارة القناة قدمت الطلب منذ أيام، ولم يبق سوى استلام البطاقة، ولكن ظروف الطوارئ، وخبرتي بالمصالح الحكومية تجعلني الخيار الوحيد المتاح لمرافقتها، بعد أن وصلت القاهرة صباحا.

قبلت على مضض.. وعند مبنى التلفزيون الحكومي، قابلت إيلين، وصعدنا معا نحو المنفذ المخصص لتسلم البطاقات. رغم أن

القانون كان ينص على ضرورة استخراج تصريح خاص بتغطية الانتخابات لكل صحفي على حدة، إلا أنني لم آبه لذلك.. تعلمت لسنوات منذ الدراسة، وقبل تعييني في مؤسسة صحفية بشكل رسمي، أن أعمل دون إثبات الصفة الصحفية على الإطلاق.. فالحصول على بطاقة عضوية نقابة الصحفيين في مصر أمر صعب المنال، ولذلك يضعه غالبية الممارسين كهدف مهني في حد ذاته.

قابلت الموظف في المنفذ، وقلت له إننا نريد تسلم بطاقة "إيلين آرنو". بالطبع لم يبحث عن الاسم، لأنه لم يتبينه، فناولني حزمة من البطاقات، التي لم يتسلمها أصحابها بعد، كي أبحث فيها عن بطاقة الزميلة الفرنسية.. فكل هؤلاء أجانب بالنسبة له، يستوي فيهم الياباني مع الأفريقي.

كانت بطاقة إيلين هي الثانية مباشرة، ولكن الفضول دفعني لتفقد بعض البطاقات الأخرى. لا أدري هل كنت أبحث عن بطاقة لإيمان أم لا.. ولكن وجدت وجها أعرفه "مجتبى حيدري".. إنه في مصر.. هذه الدنيا أضيق من ثقب الإبرة.. ربما دنيا الصحافة بوجه خاص!

بمجرد إيصالي إيلين إلى المكتب القريب من مبنى التلفزيون، كانت الساعة الثانية ظهرا، وأمامي متسع من الوقت حتى يحل المساء، حيث تنتظرني مقابلتان تلفزيونيتان.

قررت الاتصال بشريف، زميلي القديم في الصحيفة.. كنت أرغب في استعادة بعض من ذكريات الماضي.. واعدته في أحد المطاعم التي يفضلها، بينما فتحت حاسبي اللوحي، وكتبت رسالة إلى مجتبى تقول "أيها الرفيق القديم.. مر أكثر من عام منذ أن التقينا، ولم أزر إيران، ولكنك الآن في مصر مجددا.. فهل نلتقي في بلدي؟ رقمي هنا xxxxxxxxx".

لم يمض وقت طويل حتى جاء شريف. عناق حار.. وسيل من أسئلة الاطمئنان على الأسرتين.. علمت أنه لم يزل يعمل في ذات الصحيفة.

– وأين جمال؟

– لا زال رئيس التحرير كما هو.. ولكنه يفكر بك.

– بي؟

– نعم! تابع بعضا من تغطيتك لأحداث ليبيا، وكثيرا كان يقرأ ما تكتبه من تقارير وتحليلات.. فكر في استكتابك لمقال بالصحيفة.

– لم يفكر بذلك وأنا تحت إمرته! والآن أدرك موهبتي في كتابة المقال؟

– الأمر كله غريب.. من الغريب أن يفكر جمال في الاستعانة بشخص ترك العمل معه طوعًا.

– بالفعل! أتذكر حين أخبرته بقرار السفر إلى فرنسا.. أعطاني انطباعا بأنني ارتكبت خيانة في وقت الحرب!

– ربما مصلحة الصحيفة تستدعي ذلك.. أو حتى مصلحته.

– عموما لم يصلني منه أي عرض.. في كل الأحوال لم أكن لأقبل.. رغم شعوري الكبير بالملل والحنين إلى المجهول، كنت أجد سلواي في الابتعاد عن مصر، بأنني لم أعد أتكبد عناء احتمال جمال واجتماعاته، بما فيها من حِكم وتجارب.

– اللهم تُب علينا!

– دعك من هذا.. ألن تتزوج؟ عندي لك عروس فرنسية.. كنت برفقتها منذ قليل.

– أرجوك! لم ترشح لي أحدا إلا وفشلت مساعيك! لا لم أتزوج، ويبدو أنني لن أفعل.

فكرت حقا ماذا كان يريد مني جمال. هذا الرجل ينتمي إلى عمله قبل أي شيء.. ولكن منذ أنه لم يتصل بي، فلم يكن هناك داع كي أفكر طويلا.

عُدت إلى منزلي في شدة الإجهاد، بعد يوم طويل.. كنت بمفردي، بعد أن نصحت زوجتي وابنتي بالمبيت عند أهلها.. لم أكن قادرا على أي شيء بخلاف النوم.

في الصباح، استيقظت لأقرأ رسالة قصيرة على هاتفي من مجتبى، كان يخبرني باستعداده لمقابلتي، ولكن أسرعت أولا لإنهاء الارتباطات العائلية.. زيارة أهل زوجتي، واصطحابها هي وفيروز إلى بيت أهلي.. كالعادة أفعل ذلك متأخرا، ولكنها ارتباطات العمل.

قابلت الإيراني أخيرا، في اليوم الأول للتصويت.. جلسنا على مقهى مواجه لإحدى المدارس، بحي الدقي بالجيزة، بالقرب من مقر إقامته، وأمام ذات اللجنة التي أدلى فيها مرشح بارز بصوته.

تحدثنا عن السياسة وغيرها، وناقشنا الموقف الإيراني الرسمي نحو سوريا، وحدثته عن توقعاتي للانتخابات، ثم أجرى كل منا تحقيقا مع بعض الناخبين عن سير عملية التصويت، ثم قمنا لنستمتع بنسيم ما قبل الغروب، فوق جسر الجلاء.

رغم أنها كانت الزيارة الثانية لمجتبى إلى مصر، فإنه لم يكن قد زار منطقة القاهرة القديمة، بمساجدها العتيقة. اصطحبته إلى السيدة زينب، دون أن يعرف وجهتنا، وبمجرد وقوفنا أمام المسجد الكبير، مع ارتفاع أذان المغرب، طلبت منه أن يخمن أين نحن.

بدا وكأنه لا يعلم، فقلت له مفاخِرا "هذا مسجد وضريح السيدة زينب.. زينب الكبرى".

رفع حاجبيه مندهشا "ولكني زرت مرقدها في ريف دمشق!".

حكيت له عن قصص الفاطميين مع آل البيت في مصر، وأن كثيرا من هذه المقامات قد تكون ضمن أضرحة الرؤى[†]، ولكن الأمر غير محسوم تاريخيا على أية حال.. هناك شكوك أيضا حول دفن السيدة زينب في المدينة المنورة.

أدينا الصلاة، وقرأنا الفاتحة، وابتهج مجتبى كثيرا بحصوله على "النفحة" التي كانت في صورة حبيبات من النعناع، فأخبرته بأنه سيئ الحظ، فلو كان أحدهم قد نذر نذرا لله، فكان من الممكن أن نتناول بعض الخبز واللحم مجانا.

تناولنا شطائر الفول بأحد المطاعم الشهيرة قرب المسجد، وانحرف الحديث نحو بعض الأمور المذهبية، والخلافات بين السُنة والشيعة. كان معجبا للغاية بما أبديته من تقبل كونه شيعي.. فقد كان يخشى، في البلدان ذات الأغلبية السكانية السُنية، من تعرضه لمضايقات بسبب المذهب، فكان يتحاشى الحديث عنه.

أخبرته بأن الأمر قد يكون مختلفا لدى غالبية المصريين، وذهبت أبعد في إبهاره، حين قلت إنني أدعم ثورة البحرين، شأنها شأن ثورة سوريا.. فلا أقبل أن تكون إحداهما ثورة، والأخرى مؤامرة.

– لم أتخيلك ثوريا هكذا.

---

[†] المقصود بأضرحة الرؤى هي تلك التي شيدها الخلفاء الفاطميون لشخصيات من أهل البيت استنادا إلى رؤى في المنام دون أن يكون للواقع دور مباشر.

– مصطلح "ثوري" يختلف من شخص لآخر.. لو وضعتني في الحالة المصرية فلست "ثوريا".

– لأنك كنت بالخارج وقت الثورة؟

– لا.. بل لأنني لم أحصل على خاتم الثورية من حملته ومحتكريه.

ضحك مجتبى، وألحّ علي في تلبية دعوته لزيارة طهران، فأكدت له أنني سأذهب يوما، إن امتد بي العمر.

باللقاء الثاني مع مجتبى، شعرت بأنني رددت جميلا.. ربما فكرة المضايفة، كرد لرفقته الحسنة لي في ليبيا، حين كنت في أردأ حالاتي نفسيا.

***

عمت الكآبة بعد انتهاء الجولة الأولى من الانتخابات، وانقسم الجميع، حتى حملة أختام الثورة. كان خياري محسوما بالتصويت لأحد مرشحيّ الإعادة، ورغم ذلك تمسكت بالابتعاد عن الجدل السياسي، حتى أحافظ على أعصابي.

مرت الأيام سراعا، وحملت معها الكثير من اليأس.. أحكام قضائية مخيفة.. وإجراءات أمنية مكثفة.. كنت أشعر بأن الأسود قادم، وأحاول إخفاء تشاؤمي.

لم أستطع الابتعاد عن التفكير، فعملي هو متابعة ما يحدث ورصده والتعليق عليه.. هيأت نفسي لأسوأ سيناريو ممكن.. هل تُعاد أحداث الميدان السماوي، بعد أكثر من عشرين عاما؟ بلغت بي الهواجس أن طرحت هذا السؤال على ضيف في إحدى المقابلات التي أجريتها. ضحك الرجل، واستبعد ذلك، ولكن بعد انتهاء التسجيل، صارحني بأن كل شيء وارد، خاصة مع تأجيل إعلان النتائج.

قضيت ليلة في الميدان مع محسن.. كانت المرة الأولى التي أبيت فيها هناك.. تمددت على ملاءة، ونظرت للسماء.. ماذا سيكون غدا؟

فكرت في نفسي.. ماذا سأفعل لو حدث السيناريو الأسود؟ في الواقع لا شيء! سأعود إلى فرنسا كما جئت، وأستكمل حياتي هناك.. ربما سأرجئ فكرة الاستقرار في مصر إلى أجل غير مسمى.. ربما أنفجر غاضبا بعض الوقت، وأقول إن الحل لم يعد إلا في اللجوء للسلاح، ثم لن ألبث أن أهدأ، وأقرر المضي قدما.

"ثم ماذا؟".. هذا هو السؤال الذهبي.. في كل الأحوال سأعود إلى فرنسا كما جئت، حتى لو تحقق الحلم، الذي لا أستطيع أن أجعل منه معركتي مهما حدث.

في كل الأحوال سأظل هناك، أتوجه من مقر سكني إلى العمل بالمترو، وبالطريق أطالع الصحف، أو أستمع للأغاني المفضلة،

وأتحاشى صدفة جديدة توقعني بإيمان مرة أخرى، فتنطلق آلة "مهزلة العقل البشري". عنوان ذلك الكتاب، الذي كنت أطالعه عند مدخل اللوفر، وقتما لمحني زوجها، هو خير تعبير عن انفعالاتي كلها، غير المسببة خاصة، وأن شيئا لن يتغير في حياتي مهما حدث.. سأبقى كما أنا على الأرجح.. حتى يصير الوضع مثيرا للاشمئزاز، كأن أحكي لفيروز حين تكبر عن انتمائي للجيزة، وللمزاج الشعبي بوجه عام، في حين أنني أقيم في باريس، أي في واقع شديد الاختلاف عما أحكي لها عنه بشحنات من الحنين.. حتما ستتأفف مما أقول وقتها.. وسأغضب بعض الوقت لتلك الفتاة، التي لا تهتم بأصول أبيها.. حقا بدا لي ذلك السيناريو أكثر ظلمة مما قد يحدث في مصر سياسيا!

لم أصدق أن كل هذا الإحباط جاءني وأنا مستلق على أرض ميدان التحرير، أشارك المعتصمين في الضغط لتحقيق ما أراها مطالب الثورة.. الأمر شبيه بأن تشعر بالحرارة في شتاء جرينلاند، أو بالبرودة في صيف الكويت.

لم يزحف النوم إلى عيني مع اقتراب الفجر.. نهضت للقيام بجولة عشوائية في الميدان.. ظننت أنني سأقابل أحدا أعرفه.. فالمكان أشبه بمعسكر التجنيد، الذي لا بد وأن تقابل فيه شخصا تعرفه، أو على الأقل تألف ملامحه من أيام الثانوية العامة، وتحاول تذكر اسمه دون جدوى.. ولكن في النهاية، لم يظهر لي أي وجه

مألوف. أخيرا تحررت من المصادفات.. أم تراها لا تأتي إلا حين أستبعدها؟

جاء الصباح أخيرا، وقررت السير بمحاذاة النيل، حتى أبلغ الجيزة.. كنت متعبا للغاية، ومع ذلك راق لي نسيم الصباح.. سلكت جسر قصر النيل حتى ميدان الجلاء، ثم انعطفت عبر شارع النيل، قاصدا جسر الجيزة المعروف باسم "عباس".

عشرات الذكريات تدفقت على رأسي في ذلك المسار.. فكرت في الاتصال بمحمد فاروق، كي أستعيد معه بعض المواقف المحببة، ولكن الوقت كان مبكرا، فعدلت عن الفكرة، وواصلت السير، حتى جلست لأرتاح في منتصف الطريق، عند مقعد خشبي.

بدأت الشمس تعلن عن نفسها بقوة، ومع سطوعها رن هاتفي.. رقم لا أعرفه.. ولكن صوت المتصل بالتأكيد أعرفه! إنه جمال! لم أكن مستعدا على الإطلاق للإنصات لكل ما سيقول.

– مبروك أولا! أنت أول من أبارك له.

– على ماذا؟

– فاز رجلكم بالرئاسة.. المعلومة مؤكدة.

– رجلنا؟

– نعم.. اسمع أريد لقاءك للضرورة.

– في الواقع أنا منشغل جدا يا أ.جمال.. لا أستطيع أن أعدك، ولكن هل الأمر خطير للدرجة؟

– أريدك أن تكتب لنا بشكل دوري، وبالمساحة التي تريد.

– لا أفهم.. كنت أمامك في السابق، ولم تعرض عليّ كتابة مقال، ولم أطلب أنا ذلك.. ماذا جدّ؟

– بصراحة.. وجود اسمك في الصحيفة سيكسبنا بعض الثقة لدى الحكومة الجديدة.. علاقتك بالجماعة جيدة، رغم انفصالك عنها منذ سنوات.. وأنت تعرف عنهم الكثير، وبالتأكيد لديك ما تقوله.

– كل هذا بناء على افتراض أن مرشحهم قد فاز بالفعل.. ولكن حتى لو صدقت المعلومة، أنا لست مستعدا لذلك مطلقا.

– لماذا؟

– كان بإمكاني المتاجرة حتى شهر مضى بتجربتي مع الجماعة، لو تحدثت كالموتورين، وطعنت في القيادات، وحولت الأخطاء إلى خطايا.. والآن لا يمكنني أيضا أن أستغل هذا الماضي، فأتاجر به كصديق قديم لمن في السلطة.. لن أخطب ود أحد.

– متاجرة؟ هذا كلام أكبر من الموقف.. الموضوع بسيط...

– (مقاطعا) اعذرني يا أ.جمال.. أقدّر عرضك كثيرا، وقد أكون مخطئا في حساباتي، ولكن لا يمكنني القبول.

- بالتأكيد أنت مخطئ.

حاولت تغيير مجرى الحديث، ونجحت في إنهاء المكالمة بعد نصف ساعة، كانت مجمل الزمن الذي استغرقته للوصول إلى منطقتي القديمة، فصعدت إلى بيت طفولتي، وأسلمت نفسي راضيا إلى دفء الفراش، مستمتعا بشعور حضرة النعاس.

***

في يوم إعلان النتيجة رسميا، مرت إليّ تسريبات متضاربة. كنت أنسق العمل في مكتب القاهرة.. أعددت سيرة ذاتية لكل مرشح لنشر النسخة الخاصة بالفائز، فور الكشف عن هويته.. كالعادة تأخرت اللجنة، ومراسلنا ظل عالقا هناك.

وقفت في النافذة، أرقب مرور القاهرة الهادئ للغاية. كانت السلطات قد أعلنت إجراءات أمنية استثنائية، بينما كان التحرير على صفيح ساخن.. تمر أمام عيني مشاهد من الميدان السماوي، لأطردها سريعا من رأسي.. قمت، والتقطت علبة السجائر من أمام أحد زملائي، وأشعلت لفافة.

كانت المرة الأولى، منذ نحو ست سنوات، التي ألجأ فيها للتدخين. دُهش زملائي، ولم أعرهم انتباها.. فقط حاولت الانشغال بالدخان، الذي أنفثه صوب النيل.. ماذا قد يحدث؟ لعل الأمر الإيجابي هو أنني سأعود إلى فرنسا في اليوم التالي مباشرة.. فلو حدث الأسوأ، فسأكون في المطار حتما.

مرت الدقائق كالدهر، حتى جاء الإعلان، وانفجر التحرير فرحا.. لم أكن أعرف ماذا يحدث،فقط هتفت مكبرًا، ثم انغمست في تنسيق العمل.

لا أعرف كيف حدث ما حدث.. الوقت ممتد للتحليلات.. ولكن على الأقل نجحنا فيما نريد. جاءتني مكالمة زوجتي غير مصدقة.. كانت تبكي من السعادة، وكذلك فعلت أمي.. شعرت بانهمار شلال من الأمل فوق رأسي.

من الصعب للغاية أن نصف أقصى لحظات حياتنا سعادة.. حين أحاول استرجاعها لاحقا، أشعر وكأنها لم تكن..كفرحتي حين قرأت اسمي مطبوعا في صحيفة صفراء لأول مرة، وأنا ما زلت بعد في الصف الثاني، كسعادتي حين كنت أرسم البسمة على شفتيّ إيمان، كسروري حين تقوم فيروز بحركة طريفة دون قصد، فأنفجر وأمها ضاحكين!

هل لي أن أعرف الآن ماذا تفعل إيمان؟ أسرعتُ إلى صفحتها على إحدى شبكات التواصل، فوجدت صورا منشورة لها برفقة بعض معارفها، وهم يرفعون الأعلام المصرية أمام السفارة في برلين. كان حاقان يظهر في بعض الصور،ولكن ما أثار انتباهي هو التضخم الملحوظ لبطن إيمان..من الواضح أنها على وشك تجربة الأمومة.

بحلول الليل، كانت أمامي ساعات معدودة في القاهرة.. أجريت اتصالات بالأصدقاء والمعارف، ومررت سريعا على بيت أبي، ثم ذهبت إلى المترل، كي أحزم الحقائب.

- هل سيتركونه؟ (تساءلت زوجتي).
- لا أعرف.
- بالتأكيد سيحاربونه.
- ولكن اليوم يبعث على الأمل..
- لن يصبروا عليه.
- جولة الباطل ساعة.. وجولة الحق إلى قيام الساعة.
- يا رب!
- صحيح.. اكتشفتُ شيئا لم نقم به في باريس من قبل.
- وهو؟
- حفل لسعاد ماسي.. حجزتُ التذاكر عبر الإنترنت!

الأسطى

بين القاهرة وباريس

٢٥ يونيو ٢٠١٢



## إشارات

- بعض الشخصيات مستوحاة من الواقع ولكنها ليست مرآة تعكس بعض الأفراد كما هم بالفعل.

- شكر خاص وواجب إلى الصديق العزيز صلاح سيد لمساعداته غير المحصورة.

- امتنان كبير لمؤسسة ويكيميديا وخدمات جوجل المتنوعة.

- كل المطربين الوارد ذكرهم ساهموا بشكل أو بآخر في صناعة أجواء هذه القصة.

- هذه القصة ليست سيرة ذاتية.

عمرو نجيب مصطفى فهمي

٧ يوليو ٢٠١٢

تويتر: **amrfahmy٩**

